البحوث

دور مقاهي الحجاز في خدمة الحجاج منذ ظهورها حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)

د. رضا أسعد شريف

واكب انتشار شرب القهوة انتشار مواز للمقاهي التي وجد فيها الحجاج مجموعة خدمات من إعداد القهوة والتزود بالماء والطعام والوقاية من وهج الشمس والبرد الشديد، وأخذ قسطًا من الراحة نهارًا والمبيت ليلاً، إضافة إلى رعاية دواب الحجاج. وهذه المقاهي انتشرت في مدن الحجاز الرئيسة سواء الساحلية كجدة وينبع وغيرها أو المدن الداخلية وعلى رأسها مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو على مفترق الطرق الرابطة بين المدن وقرب آبار المياه. ورغم وجود فوارق نسبية بين مقاهي المدن ونظيرتها على الطرق، فإنها جميعًا قدمت للحجاج خدمات عظيمة، فقد أدت مقاهي بلاد الحجاز مجموعة من وظائف المنشآت التجارية والسكنية والترفيهية والثقافية آنذاك.

The Role of Hijaz Cafes in Serving Pilgrims since its Emergence until the Beginning of the 20th Century

Dr. Reda Asaad Sharif

The spread of coffee drinking was accompanied by a spread of the cafes. Through the cafes, pilgrims found a range of services such as coffee preparing, water and food catering, protection from sun and cold, and resting during the day and overnight. In addition, pilgrims' camels are cared for. These cafes have spread in the main cities of Hijaz, whether coastal such as Jeddah, Yanbu and others, or inland cities, chiefly Mecca and Medina, or at the crossroads linking cities and near water wells. Despite the presence of relative differences between urban cafes and their counterparts on the roads, they all provided great services to pilgrims. The Hijaz cafes performed a set of commercial, residential, entertaining and cultural facilities at that time

(قدم للنشر في ١٤٤٠/١١/٨هـ، وقبل للنشر في ١٤٤١/٦/٢٥هـ)

مركز شربين - محافظة الدقهلية - مصر

Center Shirbin - Dakahlia Governorate - Egypt

redaassad2010@yahoo.com

قبل الخوض في تفاصيل الموضوع يلزمنا تعريف كلمة مقهى، وهي نسبة إلى عمل القهوة فيها، لكنها فيما بعد جمعت بين عمل القهوة وغيرها من المشروبات الأخرى التي ظهرت بمرور الزمن، إضافة إلى ما اشتملت عليه من وسائل التسلية ومبيت الحجاج وتقديم الطعام لهم ولوسائل مواصلاتهم.

وتميزت مقاهي بلاد الحجاز بميزات عدة انفردت بها بين المقاهي في زمنها لكونها تقدم عددًا من الخدمات التي لا تقدمها غيرها، فهي جمعت بين عدد من الخدمات التي تقدمها حاليًّا الفنادق والنوادي الثقافية والمقاهي والمطاعم الآدمية والحظائر ومحلات أعلاف الدواب، وذلك لوقوع كثير منها على طرق الحج.

وقد يسرت المقاهي على الحجاج والمسافرين كثيرًا، وخففت عليهم مشاق الطرق ووعورتها، وساعدتهم على تفادي أخطار التقلبات الجوية صيفًا وشتاءً. وانتشرت هذه المقاهي في جدة ومكة المكرمة والطائف وخليص ورابغ وينبع والوجه والمدينة المنورة، وعلى الطرق الرابطة بين هذه المدن وبين مكة المكرمة. ووجود المقاهي في داخل المدن وعلى الطرق جاء في أعقاب ظهور شرب القهوة وانتشاره في بلاد الحجاز، وما صاحب ذلك من صراع فقهي بين تحليلها وتحريمها، وهو ما سنناقشه قبل الخوض في تفاصيل بحثنا.

القهوة بين التحريم والتحليل:

اشتق اسم القهوة من الإقهاء، بمعنى الإقعاد، من أقهى الرجل عن الشيء أي قعد عنه، وكراهة كل شيء والقعود

عنه، ومنه سميت الخمر قهوة لأنها تقهى أي تكره الطعام أو تقعد عنه[١]. وعلى صعيد الموطن الأول لشجرة البن فإنه لا توجد روايات تاريخية مؤكدة عن ذلك، لكن يمكن القول إن موطنها الأول بلاد الحبشة، ومنها انتقلت إلى اليمن على يد أحد المتصوفة[٢]، وشاع شربها بينهم، لأنها تعينهم على السهر للعبادة والذكر[٣].

وانتقلت عادة شرب القهوة من اليمن إلى مكة المكرمة نحو سنة (٩٠٥هـ/١٥٠٠م)، ثم منها إلى المدينة المنورة، وغدا استهلاك القهوة في مكة المكرمة وغيرها منتشرًا[٤]. وفي أعقاب ظهور القهوة دار جدل واسع حول هذا المشروب الجديد وأماكن شربه، وتأثيره في المجتمع، ففريق مال إلى تحريم القهوة، وفريق آخر أيد انتشارها وأحلها لكونها تزيد من نشاط الإنسان، وسوف نوضح رأي هؤلاء وأولئك في السطور القادمة.

(١) الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت. ٩٧٧هـ)، **عمدة الصفوة في حل القهوة**، تحقيق: عبدالله بن محمد الحبشي، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ١٩٩٦م، ص٤٠.

(٢) الحبازي، مشهور، شعر قهوة البن في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي: دراسة موضوعية، العدد الأول، **مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات**، تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٢م، ص١٨٨.

(٣) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٤٥.

(٤) عبدالمعطي، حسام محمد، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١١٦-١١٧.

أ - تحريم شرب القهوة:

يبدو أن سبب تحريم القهوة يرجع إلى أنها من أسماء الخمر عند العرب، وأنها تذهب شهية الطعام عند شاربها[٥]، ومن ثم نظر بعض المعاصرين لظهورها على أن شربها يدخل في باب أذى النفس.

وتكشف بعض الوقائع التي وقعت في مكة المكرمة مدى خشية نواب السلطات المملوكية في مكة من مشروب القهوة الجديد وانتشاره، ففي (٢٢ من المحرم ٩١٥هـ/١١ مايو ١٥٠٩م) وقع بين علماء مكة المكرمة خلاف في أمر القهوة، فعقدوا مجلسًا للعلماء بقاعة المجاهدية بباب العمرة[٦] التي صارت مدرسة تحمل اسم داود باشا[٧]، فحضر القضاة الأربعة، وأفتى الشيخ نور الدين علي بن ناصر[٨] بحل القهوة

(٥) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، **لسان العرب**، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ٥٢٧/٧.

(٦) باب العمرة: سمي بذلك لأن المعتمرين من التنعيم تعودوا الدخول والخروج منه في الأغلب. ينظر: باسلامة، حسين عبدالله، **تاريخ عمارة المسجد الحرام: بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك**، ط٤، تهامة، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص١٢٨.

(٧) داود باشا: قدم مصر عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، فأقام بها واليًا واستمر في الولاية ١١ عامًا إلى أن مات عام (٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، كان حاكمًا مهابًا سفاكًا للدماء ظالمًا. ينظر: أبو الخير، عبدالرحمن بن حسين بن عبدالرحمن، **بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى: للعز عبدالعزيز بن فهد** (٩١٠-٩٢٢هـ/١٥٠٤-١٥١٦م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٣٨٩/١، هامش ١.

(٨) هو علي بن ناصر بن محمد بن أحمد النور، أبو الحسن البلبيسي ثم المكي الشافعي، ويعرف بابن ناصر (نور الدين)، ولد في (١٣ من =

وجواز استعمالها، ووافقه على ذلك كثير من الحاضرين، ووقع التعصب من المحرمين، فسألوا عن سبب التحريم فزعموا أنها مُسكرة، وأحضروا شخصين وشهدوا أنها مسكرة مغيرة للعقل، فأمر الباشا(٩) حينئذ بمسك بياعي القهوة، وأخذ جميع ما معهم من القشر، وأحرقه في المسعى تحت مئذنة علي(١٠)، ومنع بيعها(١١).

وكان السلطان المملوكي قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م) قد عين خاير بك(١٢) ناظرًا على الحسبة في مكة المكرمة، ورأى الأخير ليلة (٢٢-٢٣ من ربيع أول

= رجب ٨٤١هـ/٩ يناير ١٤٣٨م) بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن وعمل في الفقه وأصوله والعربية وغيرها، وذهب للقاهرة والشام، وزار بيت المقدس وغيرها. ينظر: أبو الخيور، **بلوغ القرى**، ٣٨٩/١، هامش ٢.

(٩) الباشا: من باش في التركية العثمانية أي الرأس، ومعناها هنا قائد الجند، وتستعمل الكلمة بمعنى الرئيس، وذلك بوضعها قبل اسم الصنعة أو الوظيفة في مثل باشكاتب أو في آخرها مثل حكيمباشي. ينظر: سليمان، أحمد السعيد، **تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣٦.

(١٠) يقصد بها منارة باب علي، أنشأها أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي، وهي من دور واحد. للمزيد ينظر: أبو الخيور، **بلوغ القرى**، ٣٨٩/١، هامش ٤.

(١١) أبو الخيور، **بلوغ القرى**، ٣٨٨/١-٣٩٠.

(١٢) خاير بك: أول والٍ عُين على مصر من السلطان العثماني سليم الأول، وهو أحد قادة المماليك البارزين في معركة مراج دابق، وقد استطاع سليم إقناعه بالانضمام إلى جيشه مقابل توليه حكم مصر بعد القضاء على دولة المماليك، وهو ما حدث بالفعل، فحكم في المدة بين عامي (١٥١٧-١٥٢٢م). للمزيد ينظر:
Deherain, Henri: *Histoire De La Nation Egyptienne; L'Egypte Turque:* Tome V, plon- Nourrit, 1931, P. 9.

٩١٧هـ/١٨-١٩ يونيو ١٥١١م) جماعة تحتفل بالمولد النبوي، وقد: "وجد بينهم شيئًا يتعاطونه على هيئة الشربة...، ومعهم كأس يديرونه ويتداولونه بينهم...، فسأل عن الشراب المذكور فقيل هذا شراب اتخذ في هذا الزمان وسمي القهوة، يُطبخ من قشر حب يأتي من بلاد اليمن يقال له البن، وأن هذا الشراب قد فشا أمره بمكة وكثر، وصار يباع في مكة على هيئة الخمارات ويجتمع عليه بعض الناس بالرهن وغيره مما هو ممنوع في الشريعة المطهرة"[١٣]. ويبدو أن هذه الأمور المصاحبة لانتشار المشروب الجديد قد أقلقت ناظر الحسبة، لذلك جمع في صباح اليوم التالي القضاة والعلماء لمناقشتهم في هذه الظاهرة الآخذة في الانتشار.

وقد توصل العلماء بعد مناقشاتهم إلى وجوب التمييز بين القهوة نفسها وبين ما يصاحب شربها من أعمال أخرى، وأجمعوا على "أن اجتماع الناس على هذه الهيئة حرام اتفاقًا يجب إنكاره على كل قادر عليه"[١٤]. وقد اقتنع خاير بك بما انتهى إليه العلماء، وأحضر فورًا طبيبين من أطباء مكة المكرمة، وأكدوا بأن المشروب المتخذ من قشر البن "بارد يابس مفسد للبدن المعتدل". ولما تحقق الأمر كذلك لخاير بك "أشهر النداء بمكة المشرفة بمسعاها ونواحيها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة المذكورة". وكان ذلك في ضحى يوم الجمعة (٢٨ من ربيع أول ٩١٧هـ/٢٤ يونيو ١٥١١م). وفي

(١٣) الأرناؤوط، محمد، **من التاريخ الثقافي للمقهى والمقاهي**، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢م، ص١٤-١٨.
(١٤) المرجع نفسه، ص٢٢.

نهاية المطاف بناءً على آراء علماء مكة المكرمة والقاهرة والأطباء أيضًا أصدر السلطان الغوري مرسومًا نشر في مكة جاء فيه: "أما القهوة فقد بلغنا أن أناسًا يشربونها على هيئة شرب الخمر، ويخلطون فيها المسكر ويغنون عليها بآلة ويرقصون وينكسرون، ومعلوم أن ماء زمزم إذا شرب على هذه الهيئة كان حرامًا. فليمنع شرابها والدوران بها في الأسواق"[١٥]. وعُوقب من يشربها بالجلد، وهو ما حدث في نهاية سنة (٩١٨هـ/١٥١٣م)، حينما "ضرب جماعة من الذين يشربون القهوة ضربًا يسيرًا نحو العشرة وأزيد"[١٦]، وطيف ببعضهم في السوق. وفي السياق نفسه أجهر النداء بمنعها، والتشديد على عدم المخالفة، وعزر خاير بك جماعة من باعتها بعد مداهمة أماكنهم، "وأخرج ما وجده فيها من قشر البن، وأحرقه في وسط المسعى، وبطل شربها بالأسواق، وكان الناس يشربونها خفية في البيوت اكتفاء شره"[١٧].

وعمومًا دار جدل كبير بين المؤيدين والمعارضين لما يحدث "في بيوت القهوة من المنكرات". وهذا الانقسام بين علماء مكة حول القهوة ترك أثره في بلدان إسلامية أخرى كالشام ومصر[١٨]، وحينما لم تمنع رسميًّا "في مصر بلد السلطان تجاسر الناس على شربها"[١٩].

(١٥) الأرناؤوط، محمد، **من التاريخ الثقافي للمقهى والمقاهي**، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢م، ص١٥-١٨.
(١٦) أبو الخير، **بلوغ القرى**، ٢/٥٨٧.
(١٧) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٥١.
(١٨) الأرناؤوط، **من التاريخ الثقافي**، ص٢١-٢٢.
(١٩) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٥١.

ومع انتشار شرب القهوة وحدوث حالات وفاة لبعض الأعيان المداومين على شربها اعتقد الناس أنها سبب الوفاة، وهو ما حدث في (٥ من صفر ٩٢٤هـ/ ١٥ فبراير ١٥١٨م) حينما "مات الشيخ المبارك العالم معز الدين طاهر بن العماد محمد بن الغياث محمد بن السيف محمد الهروي الأصل المكي الحنفي"، وشاع بين الناس أن سبب ذلك "تغير حاله من كثرة شرب القهوة"[٢٠]، ولا شك أن ذلك قد زاد الشكوك حول شرب القهوة وضرورة تحريمها، وفي عام (٩٣٩هـ/ ١٥٣٢-١٥٣٣م) أفتى الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبدالحق السنباطي الشافعي (ت. ٩٩٥هـ/١٥٨٧م) بحرمتها وأنها مسكرة[٢١].

ولم يختلف الموقف الرسمي للدولة العثمانية من القهوة عن موقف الدولة المملوكية التي سقطت على يد سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م)، وفي هذا السياق ورد في موسم حج سنة (٩٥٠هـ/١٥٤٤م) صحبة ركب الحج الشامي إلى مكة المكرمة "حكم سلطاني بمنع القهوة وإبطالها، وإلزام باعتها بمنع التسبب بها وإبطال محالها. وذكر أن سبب ذلك شكوى امرأة رومية كانت مجاورة بمكة قبل ذلك، فأشهر النداء بإبطالها، فامتثل الناس لذلك ثم تعددت بيوتها ونعوتها لذويها من غير مبالاة من الولاة، وشُربت في موسم تلك السنة

(٢٠) ابن فهد المكي، جار الله بن العز بن النجم، **نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٤٩.

(٢١) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٥٣.

جهارًا ودام استمرارها، وشُربت مع أجلاء أهل الحرمين في يوم عرفات المعظم، واجتماعات الموقف الجليل المكرم التماسًا لوافر ذهاب الكسل وقوة النشاط...، وغير ذلك مما يرتبط بالعمل الصالح غاية الارتباط"[٢٢]. وقد ذكر الجزيري (ت. ٩٧٧هـ/١٥٦٩م) أن سبب تحريمها الأمور المستجدة على بيوت القهوة من اجتماع أهل المحظورات مع شاربي القهوة[٢٣].

وفي أحداث سنة (٩٦٨هـ/١٥٧٢م) ورد أمر سلطاني من إستانبول إلى القاهرة في غرة شعبان (٩٦٨هـ/١٥٧٢م)، وهذا الأمر اشتمل على مجموعة من النواهي، أهم ما يخص المقاهي أنه: "منع استعمال القهوة والتجاهر بشربها، وهدم كوانينها، وكسر أوانيها، وردع باعتها وذويها، والتشديد في بيعها، ومنعها إلى الغاية...، وكان العسس[٢٤] على الفحص وبيوتها وباعتها شديدًا جدًّا، وضربوا وأشهروا، وهدموا البيوت، وكسروا أوانيها"[٢٥].

وقد أكد الدرعي (ت. ١١٢٩هـ/١٧١٧م) أن سبب تحريم القهوة وتناولها في المقاهي أن فريقًا من الناس يخلطها "بشيء من المفسدات كالحشيشة ونحوها...، ومنها أن شربها في مجامع أهلها يؤدي للاختلاط بالنساء، لأنهن يتعاطين بيعها

(٢٢) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٥٥.
(٢٣) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٥٦.
(٢٤) العسس: مجموعة من رجال الأمن يطوفون بالليل لتفقد أحوال الرعية. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٢٤٦/٦.
(٢٥) الجزيري، **الدرر الفرائد**، ٦٣٣/١.

كثيرًا، وللاختلاط بالمُرد، لملازمتهم لمواضعها، ولسماع الغيبة، والكلام الفاحش، والكذب الكثير من الأراذل الذين يجتمعون لشربها، مما يسقط المروءة بالمواظبة عليها، ومنها أنهم يتلهون بها عن صلاة الجماعة، غيبة بها ولوجود ما يلهي من الشطرنج ونحوه في مواضعها"[٢٦]. وهكذا فإن أغلبية من حرموا شرب القهوة كان بدافع ما يصاحبها من أعمال الاختلاط وأنواع المحرمات كشربها "على آلات ودف وغناء وتصفيق وإدارة بكأس، وخصوصًا إن انضم إلى ذلك معاشرة المردان وأنواع المحرمات، فإنها تحرم أيضًا لأنها صارت ذريعة ووسيلة إلى المحرمات...، أو ما يضاف إليها من المفاسد لخلطها بلب الأفيون ونحوه من المسكرات"[٢٧].

ب - تحليل شرب القهوة:

وجد كثير من المؤيدين لانتشار المقاهي وشرب القهوة، واستند مجموعة من هؤلاء المؤيدين إلى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**﴾ [**البقرة**: ٢٩]. وأكد هؤلاء بأنها ليست حرامًا ومفيدة، وأن شربها محرق للبلغم. وللتحقق من عدم إضرارها أجريت التجارب العملية على بعض من تناولوها، وجرى الحوار معهم في قضايا دينية ودنيوية، وثبت أنها لا أثر لها في العقل[٢٨].

---

(٢٦) الدرعي، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر، **الرحلة الناصرية** (١٧٠٩-١٧١٠م)، حققها وقدم لها: عبدالحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ٢٠٠١م، ص٢٩٢.

(٢٧) الأرناؤوط، **من التاريخ الثقافي**، ص٧٦.

(٢٨) الأرناؤوط، **من التاريخ الثقافي**، ص١٦، ١٩.

وفي عام (٩١٨هـ/١٥١٢م) قدم إلى مكة الأمير قطلباي باش العسكر صحبة ركب الحج عوضًا عن خاير بك، فأكثر من شربها فاشتهرت أضعاف اشتهارها الأول، وتزايد انتشارها في بلاد الحرمين وما جاورها. وحينما قدم مكة الشيخ محمد بن عراق (ت. ٩٣٣هـ/١٥٢٦م) في (ذي القعدة ٩٣٢هـ/ أغسطس ١٥٢٦م)، وبلغه ما يحدث في بيوت القهوة من المنكرات أشار على الحكام "بإبطال بيوت القهوة مع تصريحه بحلها في حد ذاتها"[٢٩]. ومع نهاية سنة (٩٣٢هـ/١٥٢٦م) انتشرت بيوت القهوة في مكة، وتردد عليها كثيرون من عامة مكة وخاصتها[٣٠].

وقد كان الجزيري من أشد المؤيدين لتحليل شرب القهوة، وظهر ذلك من قوله: "المشروبات القهوة التي أحلها الشارع، إذ هي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿**قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ**﴾ [**الأنعام**: ١٤٥]. واستند الجزيري في ذلك إلى أن "أصل كل مطعوم من نبات وغيره الحل إلا ما استثناه الشارع بالنص، أو أدى إلى ضرر في بدن أو عقل". وانتقد تصرفات الإدارة العثمانية تجاه أصحاب المقاهي والقهوة وأدوات تجهيزها بقوله: "وكسروا أوانيها المحترمة الطاهرة التي هي مال لرجل مسلم، يحصل بها وبثمنها الانتفاع، ولم يبلغنا فعلهم مثل ذلك في أواني الخمر والبُرش[٣١]، والحشيشة في

(٢٩) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٥٢.
(٣٠) ابن فهد، **نيل المنى**، ص٣٧٥.
(٣١) البُرش: (الداتورا – جوز ماثل)، نبات عشبي معمر سام، من الفصيلة=

فتح حوانيتهم، وبيع ذلك من غير نكير، وتعللوا بأن منع بيع البرش يؤدي إلى هلاك آكله إذا عدم وجوده، وأما بيع الخمر فهو فاشٍ من غير تحريم شديد إلا كتحلة القسم، معللين ذلك بأن منعه يؤدي إلى إبطال المقررات السلطانية التي على باعته، وذلك محظور، إذ مال السلطان مقدم على غيره عندهم"(٣٢).

واستمر الجزيري في نقد قرار السلطان العثماني بتحريم القهوة سنة (٩٦٨هـ/١٥٧٢م) بقوله: "والقهوة قد اشتهرت في عموم الأقطار والأمصار"، وذكر أنها تعين على "السهر في مجالس العبادة والذكر وقراءة القرآن"، وهذا هو الهدف من شربها. ورفض الجزيري المقارنة بين القهوة والحشيش وغيره من المسكرات التي تنشر الفواحش في المجتمع، وأكد أنه لا مانع من شرب القهوة لتعين على العبادة "أو أمر مباح، كسفر في صناعة أو نشاط في عمل مباح"، وذكر بأنها في

= الباذنجانية، يبلغ طوله نحو متر ونصفٍ، وأوراقه بيضوية الشكل طولها من (١٠-٢٠ سم)، وهو من النباتات المؤثرة في الجهاز العصبي المركزي. وأوراق النبات وأزهاره سامة جدًّا، ويستعمل تحت الإشراف الطبي، ويحظر إمساكه بدون واقٍ، وله استعمالات طبية كعلاج أمراض الجهاز التنفسي التشنجية، ومثبط لعضلات المعدة، والأمعاء، والرحم، والمثانة، وموسع لحدقة العين، والقصبات الهوائية، ومضاد للتشنجات الناتجة من التسمم بالمبيدات الحشرية، والآلام القوية، والالتهابات الخطرة. ينظر: السيد، عبدالباسط محمد، وعبدالتواب عبدالله حسين، **الموسوعة الأم: للعلاج بالنباتات والأعشاب الطبية**، ط٤، دار ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٢٩٠.

(٣٢) الجزيري، **الدرر الفرائد**، ١/٦٣٣-٦٣٤.

مثل هذه الحالات "من أحل الحلال بالنص والإجماع، ومن زعم أن شربها منفردة يسكر أو يغير فقد افترى بهتانًا، وإثمًا عظيمًا"(٣٣).

ويتضح مما سبق أن الجزيري كان ساخطًا على التشدد غير المبرر في منع القهوة وإغلاق المقاهي، وفي مقابل ذلك غض الطرف عن الخمر والبرش والحشيش، وتدريجيًّا حسم الأمر في النهاية لمصلحة أنصار تحليل القهوة في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وعبر عن هؤلاء إبراهيم بن المبلط(٣٤) بأبيات يقول في بعضها:

أرى قهوة البن في عصرنا
على شربها الناس قد أجمعوا(٣٥)

ويقول:

يا عائبًا لسواد قهوتنا التي
فيها شفاء النفس من أمراضها

(٣٣) المصدر نفسه، ١/٦٣٥-٦٣٦.

(٣٤) إبراهيم المبلط: الشيخ برهان الدين إبراهيم بن المبلط، شاعر القاهرة، توفي سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م. ينظر: الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت. ١٠٦١هـ/١٦٥١م)، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ٢/٨٧.

(٣٥) ابن العماد الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي (١٠٣٢-١٠٨٩هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ١٠/٦٢٢.

ويقول:

اشرب هنيئًا قهوة البن التي

تحلو مع الإخوان والخلان

ويقول:

اشرب من القهوة صاعين

ولو ببذل الورق والعين[٣٦]

وكان ابن حجر الهيتمي (ت. ٩٧٤هـ/١٥٦٦م) من ضمن من أباحوا شرب القهوة، وأثنى عليها، وذكر أنها من شراب الصالحين ومعينة على العبادة[٣٧]. وكان عبدالقادر العيدروس (ت. ١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) من ضمن من دافعوا عن القهوة والمقاهي بتأكيده أنها ظُلمت[٣٨].

وفي سياق الإحلال أيضًا ذكر الدرعي في سنة (١١٢٢هـ/ ١٧١٠م) أن أكثر العلماء يميلون إلى إباحة شرب القهوة، وخصوصًا أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر وخلو المعدة صباحًا، فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطًا، وأحس بخفة في رأسه، وهي مخففة اتفاقًا

(٣٦) الورق والعين: هما الذهب والفضة. ينظر: الغزي، **الكواكب السائرة**، ٢/٨٧-٨٨.

(٣٧) العياشي، عبدالله بن محمد، **الرحلة العياشية** (١٦٦١-١٦٦٣م)، حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ٢٠٠٦م، ١/٢٣٨.

(٣٨) العيدروس، عبدالقادر بن شيخ عبدالله الحسيني الحضرمي اليمني المهتدي (٩٧٨-١٠٣٨هـ)، **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**، تحقيق: أحمد حالو، وآخرين، دار صادر، بيروت، ٢٠٠١م، ص٢٥٩.

وهاضمة...، وهي نافعة لصاحب البلغم...، والحاصل أن شاربيها فريقان:

فريق يشربها في أماكن معدة لذلك، مزخرفة (المقاهي)، وفريق آخر يشربها في مساكنهم أو حوانيتهم، أو يشترونها من السوق، ويشربونها دون الجلوس مع الفريق الأول، فهؤلاء الحامل لهم عليها الفهم لها، حتى إنهم ربما يتضررون ضررًا خفيًّا بتركها[٣٩].

وعادة ما يشربونها مع طعام خفيف ككعك أو كسر خبز، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء، وعلى الرغم أن كثيرًا من السلاطين والولاة وأتباعهم بالغوا في إرادة قطعها والنداء عليها في الأسواق بألا تشرب، ومعاقبة شاربيها والتنكيل بهم: "ومع ذلك لم تزد إلا شهرة وشيوعًا في البلاد"[٤٠].

ومن الجدير بالذكر أن صدى جدل التحريم والإحلال في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي قد أثر في بعض الناس الذين عاشوا في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، ورفضوا شرب القهوة خشية الوقوع في الشبهات، على الرغم من شيوع المقاهي بعد تحليل شربها[٤١].

والقهوة عمومًا من المشروبات الأساسية التي اعتمد عليها كثير من الحجاج في تنقلاتهم بين مدن بلاد الحجاز[٤٢]،

(٣٩) الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٢٨٧.
(٤٠) الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٢٨٩.
(٤١) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/ ٤٥.
(٤٢) كحيل، فريد قيومجي، وروبرت غراهام، **مصور في الحج: رحلات محمد أفندي السعودي (١٣٢١-١٣٢٥هـ/١٩٠٤-١٩٠٨م)**، ترجمة: سرى =

وهكذا فَرضت القهوة والمقاهي وجودهما في مكة المكرمة وغيرها من بلاد الحجاز(٤٣).

أولاً: وصف المقاهي

أ- وصف البنيان:

إن بنيان المقاهي اختلف من مقهًى إلى آخر، ومن مكان إلى آخر حسب موقعها، والحالة الاقتصادية لصاحبها والمترددين عليها، ومن الطبيعي أن يكون بنيان مقاهي المدن أفضل وأقوى من بنيان مقاهي الطرق والقرى، وقد كانت مقاهي مدينة جدة أفضل المقاهي التي وصفها الحجاج، إذ كانت تتسم بحسن مظهر البنيان(٤٤).

وأما بنيان مقاهي الوجه فقد كان يغلب عليها الخشونة وخلوها من اللمسات الفنية، ولا يزيد على كونها سقفًا قائمًا على أعمدة من جذوع النخل، ولم يحسن أصحابها تهذيبها في الأغلب، وأقيم كثير من أبنية المقاهي فوق أرض متربة تحيط بها مصاطب غير مستوية من الطوب اللبن تشكل ديوان المقهى. وتوجد مصاطب ضخمة مربعة الشكل في وسط كثير من المقاهي، تستعمل لنوم الحجاج ولأغراض أخرى، وفي بنيان بعض المقاهي كانت توجد فراغات بين حجارتها وفتحات في طول الجدران وعرضها، ويبدو أن هذه

= خريس، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)، أبوظبي، ٢٠١٢م، ص٥٥.

(٤٣) عبدالمعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، ص١١٦-١١٧.

(٤٤) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.

الفتحات قد تركت لتسمح لضوء الشمس والقمر ليلة البدر أن يُضيء المقاهي إضاءة طبيعية، وسمح هذا بتهوية المقاهي وخروج الأدخنة تلقائيًّا كي لا يختنق من بداخلها، وكان أحد أركان البناء مخصصًا لنصبة القهوجي، وهي مكان مرتفع، عادة ما يكون من الطين لإيقاد الأخشاب أو الفحم(٤٥).

أما مقاهي أطراف مكة المكرمة فقد كانت أيضًا عادية البنيان، وقد وصفها الرحالة أوليا جلبي في أثناء رحلته لمكة بقوله: "مبنية من الأخشاب كالأكواخ". أما مقاهي قلب مكة فقد كانت أنيقة البنيان(٤٦).

وأما عن بنيان المقاهي على طول الطرق بين المدن فعادةً ما كانت مقامة من الأغصان المقطوعة، وشكلها مخروطي مسطح، وأسقفها من أغصان النخيل والأشجار المحمولة على قوائم النخيل وغيره، وهذه المقاهي لها سقائف فسيحة يجلس الناس تحتها لاتساع المناطق على الطرق مقارنة بالمقاهي المحاطة بالمساكن دخل المدن، وهذه السقائف الفسيحة مرتكزة على قوائم أو أعمدة(٤٧).

وبعض هذه المقاهي على الطرق كانت مكونة من القصب

(٤٥) بيرتون، رتشارد ف.، **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتعليق: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ١/١٧٦.

(٤٦) جلبي أوليا، **الرحلة الحجازية**، ترجمها عن التركية وقدم لها: الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٧١-٢٧٢.

(٤٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٢-٣٣، ٥٥.

أو الغاب[٤٨]، وأغصان الأشجار، وكان من بين ذلك على سبيل المثال مقهى حدا[٤٩] الذي كان بنيانه يتألف من سقيفة من أغصان الأشجار يحيط بها عدد من السقائف الصغيرة[٥٠]. وقد وجُدت مقاهٍ في مكة المكرمة هي أخصاص، وكان من بينها مقهى شداد[٥١] الذي تكون من أربعة أخصاص متفرقة قُطر الواحد منها ثلاثة أمتار ونصف في ارتفاع متر ونصف[٥٢]، وهناك مقاهٍ أخرى على الطرق كان بنيانها جدرانًا قديمة متهالكة وأسقفها من أغصان الأشجار[٥٣]، وربما كانت مثل هذه المقاهي منازل قديمة حولها أصحابها إلى مقاهٍ.

ولم تكن المقاهي على طول الطريق بهذا الوضع دائمًا،

(٤٨) ريزفان، يفيم، **الحج قبل مئة سنة: الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي** (١٨٩٨-١٨٩٩م)، ط٢، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص١٢٧.

(٤٩) حدا: وادٍ فيه حصن ونخل بين مكة وجدة، وكانت قديمًا تسمى حداء. ينظر: البلادي، عاتق بن غيث، **معجم معالم الحجاز**، ط٢، دار مكة للنشر والتوزيع، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ٤٢١/٣.

(٥٠) ديدييه، شارل، **رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر** (١٨٥٤م)، ترجمة وتعليق: محمد خير البقاعي، دار الفيصل، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٢٧١.

(٥١) مقهى شداد: يبدو أن هذا المقهى اتخذ اسمه من جبل (أبو شداد)، وهو يقع غرب نمرة وسطاع، منقطع في الخبت، جنوب غربي مكة. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٨٨٧/٥.

(٥٢) صادق، محمد، **الرحلات الحجازية**، إعداد وتحرير: محمد همام فكري، بدر للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩م، ص٣٥١-٣٥٢.

(٥٣) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٣-٥٤.

فقد وجدت مقاهٍ مبنية بالحجارة متينة البنيان ومسقفة ومتسعة[٥٤]، وكثيرًا ما فضَّل الحجاج المكوث في الهواء الطلق خارج المقاهي[٥٥] في ظلها، إذ إن كثيرًا من أصحاب المقاهي سقفوا الواجهات الأمامية لها لحماية المترددين عليها من التقلبات الجوية كالحرارة الشديدة والأمطار[٥٦]، وفي حال امتلاء هذه الأماكن يضطر الحجاج والزوار إلى الجلوس داخل المقاهي[٥٧].

ب - وصف الأثاث والمفروشات:

إن جودة أثاث المقاهي أحد عوامل جذب الحجاج والمترددين عليها، وخصوصًا في حال وجود أكثر من مقهًى في المكان نفسه، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى الحالة المالية لأصحاب المقاهي، وقد تبين أن مقاهي المدن أفضل أثاثًا من مقاهي الطرق بين المدن، فعلى سبيل المثال فإن أغلبية مقاهي مكة تتميز بأن دككها وكراسيها من الخشب ومقاعدها مصنوعة على شكل شباك من الليف أو الخوص المجدول، وأفضل أثاث لمقاهي مكة كان يقع في حي أجياد[٥٨]،

(٥٤) رفعت، إبراهيم، **مرآة الحرمين: أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية**، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، ١/٢٦.

(٥٥) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦.

(٥٦) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٧٨.

(٥٧) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦.

(٥٨) البتنوني، محمد لبيب، **الرحلة الحجازية: لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر**، ط٢، مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ص٥٧-٥٨.

ووجدت مقاهٍ أخرى أثاثها فاخر كبيوت الأغنياء، والخدمة فيها على أفضل ما يكون[٥٩]. وبعض المقاهي كان أثاثها يشتمل على كراسي صغيرة منخفضة[٦٠]، وكثير من هذه الكراسي وضعت في داخل المقاهي وخارجها[٦١].

وكان من ضمن أثاث كثير من المقاهي الأسرَّة الخاصة بمبيت الحجاج[٦٢]، وغيرهم من التجار والمسافرين على الطرق[٦٣]. وحرص كثير من أصحاب المقاهي على وجود صناديق داخل المقاهي لحفظ مقتنيات الحجاج[٦٤].

وعلى صعيد مفروشات المقاهي الراقية فقد كان من بينها السجاجيد التي يستريح ويتمدد عليها الحجاج[٦٥]، وفي المقاهي المتواضعة توجد حصر وأبسطة ينام عليها المترددون على المقاهي[٦٦].

وفي هذا السياق وجد بمكة مقاهٍ عادية المفروشات، ذكرها أوليا جلبي في رحلة حجه سنة (١٠٨٢هـ/١٦٧١م) بقوله: "مفروشة بحصير من سعف النخل...، وعدا هذه المقاهي العادية، فإن هناك سبعون مقهًى أخرى أنيقة،

(٥٩) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٧/٢.
(٦٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٢.
(٦١) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٦/١.
(٦٢) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٨/٢.
(٦٣) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٢.
(٦٤) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٨/٢.
(٦٥) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٤.
(٦٦) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٦/١-١٧٨.

ومزدانة بالزخارف، والنقوش...، وهذه المقاهي الأخيرة معمورة"[٦٧]. وعمومًا فإن أثاث ومفروشات أغلبية المقاهي كانت في غاية البساطة على الطرق في الأغلب مقارنة بمقاهي المدن[٦٨].

ج - وصف الأدوات ومستوى النظافة:

كان من أبرز أدوات المقاهي القدور[٦٩] والملاعق وغيرها من الأواني التي تستعمل أو تساعد على تجهيز القهوة، وبخاصة الأواني الفخارية التي أطلق عليها اسم (مشربة)، وعادةً ما يوضع في فم الإناء حزمة صغيرة من الأعشاب الطازجة أو الجافة لتنقية القهوة من الحبيبات الكبيرة في أثناء مرورها من فم الإناء[٧٠].

وكانت فناجين القهوة من ضمن الأدوات الرئيسة التي تستعمل في المقاهي، وكان أصحاب المقاهي يحرصون على امتلاك أعداد كبيرة منها، فقد جرت العادة أن يقدم لكل زائر إناء فخاري من القهوة الساخنة، ومعه من عشرة فناجين إلى خمسة عشر فنجانًا[٧١].

وقد فتح هذا الأمر الباب أمام استيراد فناجين القهوة وصناعتها في مدة مبكرة من انتشارها في القرن العاشر

(٦٧) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧١-٢٧٢.
(٦٨) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١-٣٥٢.
(٦٩) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص١٠.
(٧٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨١.
(٧١) المرجع نفسه، ص٨١.

الهجري/ السادس عشر الميلادي[٧٢]، إضافة إلى الكؤوس التي كان يحتسي فيها الناس القهوة، وفي هذا السياق قال أمير مكة حسن بن أبي نمي (ت. ١٠١٠هـ/١٦٠١م) شعرًا نورد بعضًا منه:

ترج الكأس تحيا وهب
بنت بُن[٧٣] ليست بنت العنب
قهوة دعجاء كحلا شربها
يذهب الهم ينفي النصب
هاتها صرفًا بلا مزج وقل
أيها الساقي جبالي أجب[٧٤]

ويضاف إلى ذلك الكانون الذي توقد فيه النيران لتجهيز القهوة، ومن بين أدوات القهوجي أيضًا الدِّلال التي توضع على النار لعمل القهوة، إضافة إلى الفحم الخاص بإعداد المشروبات الساخنة عمومًا، ومجموعة من القلل المخصصة للماء البارد التي عادة ما توضع في فتحات دائرية في قطعة من الخشب، تناسب حجم القلل[٧٥].

(٧٢) الجزيري، **الدرر الفرائد**، ٧٠٦/١.
(٧٣) بنت بُن: المقصود بها القهوة. ينظر: السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين (١٠٥٧هـ/١١٢٥هـ)، **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، دراسة وتحقيق: جميل عبدالله محمد المصري، جامعة أم القرى (مركز إحياء التراث الإسلامي)، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٣٦٦/٣.
(٧٤) المصدر نفسه، ٣٦٦/٣-٣٦٧.
(٧٥) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٦/١.

ومن ضمن أدوات المقاهي الجرار الكبيرة التي كانت بمنزلة خزان للمياه التي تستعمل لغسل الأواني، وعمل القهوة وملء القلل، وربما استعملت في رش المقاهي لترطيبها وتسكين الغبار المتطاير أمام المقاهي(٧٦).

وعمومًا فإن أواني مقاهي بلاد الحجاز تنوعت ما بين سكارج الفخار والبلور في المقاهي العادية، في حين أن مقاهي النخبة انتشر فيها احتساء القهوة في الفناجين الصيني. وما ينطبق على المقاهي ينطبق على الأدوات الخاصة في منازل الفقراء والأثرياء(٧٧).

ومن ضمن أدوات المقاهي أيضًا أدوات التدخين، وتشمل ثلاثة أنواع مختلفة هي:

١- القدرة، وهو الأكبر ويرتكز على منصب ثلاثي القوائم، مصنوع بدقة وإتقان، ويوجد في المنازل الخاصة.

٢- الشيشة، وهي أصغر حجمًا، لكنها كالقدرة موصولة بأنبوب ملتف ويسمى لية، ويشرب به الدخان.

٣- البوري: وهو قشرة جوز الهند غير المصقولة، وتحوي بداخلها ماء، وتحل قصبة غليظة محل الأنبوب، أما التبغ المستعمل في الصنفين الأولين فيأتي من مدينة شيراز الفارسية، وهناك نوع من التبغ أقل جودة يعرف بـ(التمباك)(٧٨)" يأتي من البصرة وبغداد، إضافة إلى التبغ

(٧٦) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٥.

(٧٧) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص٦٥.

(٧٨) التمباك (التنباك): لفظة من أصل هندي تطلق على النحاس أو =

الذي يأتي من مصر وسوريا وسِنَّار وسواكن واليمن[٧٩].

ويعد التبغ المصري أكثر أنواع التبغ طلبًا في الحجاز، وقد ذكر بيركهارت في أثناء زيارته جدة سنة (١٢٢٩هـ/١٨١٤م) أنه وجد بها واحدًا وثلاثين متجرًا لبيع التبغ بجميع أنواعه، فضلاً عن أنابيب النراجيل وجوز الهند، وتستورد الأنابيب الطويلة للغلايين الفارسية من اليمن، وهي حسنة المظهر[٨٠]، وفي كثير من الأحيان تغلف هذه الأنابيب بالحرير أو القماش الناعم، وفي أيام الحر الشديد يُرطب بالماء للتخفيف من حرارة الدخان، وعادةً تكون قصبة الغليون من البوص، أما محرق التبغ فيكون عادةً من الفخار[٨١]، ويدخل من ضمن أدوات المقاهي أيضًا فحم شرب الدخان[٨٢].

وعلى مستوى النظافة حرص أصحاب المقاهي على تنقية البن جيدًا من الشوائب وحفظه في أوانٍ خاصة بعيدًا عن الحشرات والزواحف والفئران التي تفسده[٨٣]، ولم يهمل أصحاب المقاهي نظافة الأدوات والمفروشات ونظافة ثياب

= البرونز المخلوط بالذهب، أو المطلي به، وفي اللغة التركية: تومباك أو طومباق، وعليه يوضع تبغ النرجيلة، ثم سمي تبغ النرجيلة بالتباك. ينظر: زناتي، أنور محمود، **معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية**، عمان، دار زهران، ٢٠١١م، ص٩٣.

(٧٩) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٢.

(٨٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٨-٣٩.

(٨١) نيبور، كارستن، **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها**، ترجمة: عبير المنذر، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٧م، ١٤٦/١.

(٨٢) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٦/١.

(٨٣) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص١٠.

العاملين فيها، فقد كانت أغلبية المقاهي مضرب المثل في إدخال البهجة والسرور في نفوس المترددين عليها، وإذهاب الكدر ووجود الروائح الجميلة بها(٨٤).

وكانت مقاهي جدة تلقى عناية خاصة من أصحابها الذين كانوا يرشونها بالمياه يوميًّا حرصًا على نظافتها(٨٥)، والخدم فيها على أحسن حالة من النظافة وحسن المعاملة(٨٦).

ووجدت في مقاهي ينبع(٨٧) مستويات جيدة من النظافة، وكانت بعض المقاهي يُقدم فيها الجواري القهوة للحجاج والمسافرين المترددين عليها(٨٨).

ويذكر البتنوني (ت. ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) أن بعض الهنود كانوا ينظفون مقاهي مكة بمهارة فائقة، ويستمر الواحد منهم في تنظيف المقهى "نحو نصف ساعة على الأقل في نظير قرش أو قرشين"(٨٩).

ولم تكن العناية بالنظافة سمة المقاهي على طول الخط، إذ كان بعض أصحاب المقاهي يهملون أعمال النظافة فيها، وكان من بينها مقاهٍ على أطراف مكة تُربى في بعضها الطيور

(٨٤) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص١١.
(٨٥) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.
(٨٦) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٧/٢.
(٨٧) ينبع: يقصد بها ينبع البحر، وهي مدينة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وتعد ميناء المدينة المنورة، تقع شمال جدة على (٣٥٤) كيلاً، وعن المدينة (٢٥٠) كيلاً غربًا من طريق بدر. للمزيد ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٠/١٨٦٩-١٨٧٠.
(٨٨) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١/٢٩٩-٣٠٠؛ الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٣٤٥.
(٨٩) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٥٧-٥٨.

التي تلازم الحجاج في الأخصاص التي يبيتون فيها، وقد وصف محمد صادق (ت. ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) ذلك بقوله: "وكأكأة الفراخ وشم رائحتها التي تزهق الأرواح"[٩٠]، ووجد أيضًا إهمال في نظافة بعض مقاهي الوجه[٩١].

ثانيًا: المقاهي في مدن بلاد الحجاز

أ - مقاهي جدة:

إن جدة أبرز مدن الحجاز التي انتشرت فيها المقاهي، ويُعزى ذلك إلى كونها ميناءً رئيسًا يستقبل مختلف أنواع السلع والبضائع، وبخاصة البن من بلاد اليمن، فتجارة بن القهوة وبضائع الهند هما السائدتان في جدة، ولا ترتبط تجارة البن في جدة بوقت معين، فهي رائجة طوال العام[٩٢]، وقد أثر ذلك في رواج مقاهي جدة التي كانت ملتقى الجنسيات المختلفة[٩٣]، وما أسهم في رواج نشاط مقاهي جدة تدفق الحجاج عليها لكونها ميناء مكة، وأسواقها رائجة تستقبل أعددًا كبيرة من الحجاج المصريين وغيرهم من القادمين عبر البحر، وقد ذكر العياشي (ت. ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م) عنها قائلاً: "فيها قهاوٍ ومجالس حسنة، يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها، ورشها بالماء، وفيها جلوس غالب أهل البلد، وقد اتخذوا فيها أسِرَّة كثيرة، منسوجة بشريط المسَدِ وبصنعة

(٩٠) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١-٣٥٢.
(٩١) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦.
(٩٢) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٤-٢٥.
(٩٣) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص١٧٢.

محكمة، وهي مخصصة لمبيت من يرغب"[٩٤]. وتكون هذه المقاهي في أوج نشاطها مع حلول موسم الحج، إذ يستريح فيها الحجاج والمسافرون[٩٥]، وكانت هذه المقاهي منتشرة في جميع أحياء مدينة جدة[٩٦].

وقد ذكر بيركهارت في أحداث سنة ١٨١٤م أن بجدة (٢٧) مقهًى تقدم القهوة للمترددين عليها من التجار والحجاج، وعلى حد وصفه: "وهناك سبعة وعشرون مقهًى، وتُشرب القهوة بإفراط في الحجاز، فمن الشائع جدًّا أن يشرب الناس من عشرين إلى ثلاثين فنجانًا في يوم واحد، أما العمال الفقراء فلا يشربون أقل من ثلاثة أو أربعة فناجين، وفي عدد قليل من المقاهي يمكن تناول القشرة، وهي مشروب يصنع من قشرة حب القهوة، وهو لا يقل في نكهته غالبًا عن المشروب المصنوع من الحب نفسه"[٩٧].

وتغص مقاهي جدة بالناس طوال النهار، وأمام هذه المقاهي تنصب سقيفة يجلس الناس تحتها أيضًا، ويبدو أن الضغوط الكبيرة على هذه المقاهي في موسم الحج كان سببًا في إهمال نظافة كثير منها، وبخاصة غرف مبيت الحجاج، والمقاعد والكراسي الصغيرة المنخفضة، وذلك للتردد الدائم

(٩٤) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٥٤/٢-١٥٥.

(٩٥) الحسين بن محمد الورثيلاني، **الرحلة الورثيلانية: الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ٥١١/٢.

(٩٦) نيبور، **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية**، ٢٣١/١.

(٩٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣١.

عليها من التجار والعاملين في البحر الذين يجدون ملاذهم في تلك المقاهي، وإن كان ذلك لا يبرر إهمال نظافتها، وعلى أطراف هذه المقاهي انتعش عدد من الحرف التي قدمت خدمات للحجاج المترددين عليها، فمثلاً بجوار كل مقهًى سقاؤون يبيعون "الماء البارد في جرار صغيرة معطرة"، إضافة إلى باعة الزبد والعسل والزيت والخل الذين ينتشرون في محيط المقاهي، وهذا يعني أن هذه المقاهي قدمت للحجاج جملة من الخدمات، ويبدو أن انتشار باعة الزبد في محيط المقاهي يرجع إلى العادات الشائعة آنذاك عند كثير من الناس "بأن يشربوا كل صباح فنجانًا مليئًا بالزبدة المذوبة أو السمن وتشرب بعدها القهوة، إذ يعتبرونها منشطًا قويًّا، وقد اعتادوا عليها كثيرًا منذ نعومة أظفارهم، وقد يشعرون بانزعاج كبير إذا ما انقطعوا عن استعمالها"، ويلجأ بعض الناس إلى دهن صدورهم وأكتافهم وأيديهم وأرجلهم بالزبد "وذلك لإنعاش البشرة"(٩٨).

أما إبراهيم رفعت باشا فقد تحدث أيضًا عن دور مقاهي جدة في خدمة الحجاج في أحداث (٢٤ من ذي القعدة ١٣١٨هـ/١٥ مارس ١٩٠١م) بقوله: "وصلنا إلى قهوة البوغاز أو البستان في الساعة السابعة ليلاً، فاسترحنا بها إلى منتصف الساعة الثانية عشرة ثم ارتحلنا"(٩٩).

وأما عدد مقاهي جدة في العقد التاسع من القرن التاسع

(٩٨) المرجع نفسه، ص٣٣.
(٩٩) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٤.

عشر الميلادي فقد ذكر أيوب صبري باشا (ت. ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م) بأنها بلغت (٤٠) مقهًى[١٠٠]، بمعنى أن العدد زاد (١٣) مقهًى من منتصف العقد الثاني من القرن التاسع عشر إلى العقد التاسع من القرن نفسه.

ومن المؤكد أن إقبال الحجاج على المقاهي كان هدفه الراحة واحتساء القهوة لما هو معروف عنها بأنها تعين على اليقظة والسهر في أثناء التنقل من مكان إلى آخر، أضف إلى ذلك رخص أسعارها مقارنة بمشروبات أخرى، وما ساعد على رخص أسعارها أن الأوروبيين في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ضعف إقبالهم على شراء البن اليمني لاعتمادهم على بن العالم الجديد، وهو ما أدى إلى تكدس كميات كبيرة من البن في جدة، ومن ثم رخص سعره لعدم تصريفه[١٠١].

ب - مقاهي مكة:

ذكر بعض من زاروا مكة وعلى رأسهم أوليا جلبي بأن أهلها يفضلون شرب القهوة[١٠٢]، ويتجولون بين المقاهي من أجل ذلك[١٠٣]، وأغلب مقاهي مكة كانت قريبة من تجمعات الحجاج، وقد ذكر أوليا جلبى أن بين محل إقامة ركب الحج

(١٠٠) صبري باشا، أيوب، **مرآة جزيرة العرب**، ترجمة وتعليق: أحمد فؤاد متولي، والصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص١٣٤.

(١٠١) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٥.

(١٠٢) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧٦.

(١٠٣) المرجع نفسه، ص٢٧٩.

المصري والشامي بمكة أربعين مقهًى، "وكل واحدة منها مشحونة بخلائق البشر، ففي كل واحدة ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين[١٠٤]...، ولكن هذه المقاهي ليست أبنية مصنعة، بل هي مبانٍ عادية"[١٠٥].

وهذا الأمر ساعد على انتشار المقاهي التي تنتعش بالأخص مع قدوم موسم الحج، فقد كانت مقاهي مكة تكتظ بالناس في موسم الحج صباحًا ومساءً، وعلى حد وصف بيركهارت: "من الساعة الثالثة صباحًا حتى الحادية عشرة ليلاً"[١٠٦]، وبعض الحجاج كانوا يضعون قطرة من البلسم في أول فنجان قهوة يشربونه في الصباح ظنًّا منهم أنه يعمل منشطًا[١٠٧].

وكانت المقاهي في مكة عمومًا وجهة رئيسة ومركز تجمع للحجاج للاستراحة من التعب والإرهاق قبيل أداء الشعائر وبعد أدائها، لاحتساء القهوة والتأمل فيما مضى من أحداث، والتخطيط لما هو قادم قبل شد الرحال لجدة وغيرها[١٠٨]، وفي حي القشاشية[١٠٩] وجدت عدة مقاهٍ يستريح فيها

(١٠٤) يقصد بهم الحجاج العاديين من الفلاحين والحرفيين.
(١٠٥) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧١-٢٧٢.
(١٠٦) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٠٢.
(١٠٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٥٨-٢٥٩.
(١٠٨) كين، جون فراير (الحاج محمد أمين)، **ستة أشهر في الحجاز: رحلتان إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في عام** (١٨٧٧-١٨٧٨م)، ترجمة: إنعام إيبش، مراجعة وتحرير: أحمد إيبش، مكتبة مؤمن، أبوظبي، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص١٥٤.
(١٠٩) القشاشية: حي وسوق بمكة بين المسجد الحرام والغزة، تحيط به شوارع المدعى من الغرب وسوق الليل من الجنوب، وشارع الغزة =

الحجاج، ويشربون فيها المشروبات المختلفة[١١٠].

ومن الأمور المثيرة التي أوردها محمد حسين هيكل (ت. ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) وجود مقاهٍ على حافة المسعى، وقد وصف هذا الأمر قائلاً: "على أني وقفت هنيهة قبل منصرفنا أمام مقهًى من المقاهي القائمة وسط المسعى...، ولقد ثارت نفسي حقًّا لمنظر هذه المقاهي التي انتهكت حرمة المكان، وقد تغير هذا الأمر بعناية حكومة جلالة الملك (عبدالعزيز، رحمه الله) بهذا المنسك"[١١١]. ومن ضمن المقاهي التي تردد عليها بعضهم مقهى[١١٢] المعلا[١١٣]، ومقهى النخل[١١٤]، ومع استقبال مقاهي مكة كثيرًا من الحجاج من مختلف الجنسيات في موسم الحج، ينتشر المتسولون الذين يترددون على المقاهي لنيل الصدقات من الحجاج[١١٥].

وقد ذكر البتنوني أن بمكة مقاهٍ كثيرة حسنة، وأن أفضلها حسنًا في حي أجياد، وأن الحجاج يجلسون على هذه

= من الشرق، والقشاشية حاليًّا أصبح جزءًا من الحرم المكي الشريف بعد توسعته. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٣٨١/٧.

(١١٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٠٧.

(١١١) هيكل، محمد حسين، **في منزل الوحي**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٩٠-٩١.

(١١٢) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٧٣.

(١١٣) المعلا: هو القسم العلوي من مكة المكرمة، ويطلق على حي وسوق بين الحجون والمسجد الحرام، وعادة ما يطلق على مقبرة مكة التي صارت تعرف بالمعلاة لوقوعها في هذا الحي. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٦٢٤/٨.

(١١٤) العصامي، **سمط النجوم**، ٥١٣/٤.

(١١٥) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢١٦.

المقاهي، وخصوصًا التي على أطراف مكة مدة الصيف، ويشربون فيها الشاي والقهوة[١١٦].

وعلى جوانب الطرق المؤدية إلى عرفات انتشرت صفوف من الأكشاك التي تشبه المقاهي، وتقدم الشاي والتبغ وغيره من المشروبات، والمكان في موسم الحج أشبه بمجمع يقدم خدماته للحجاج[١١٧].

ووجد بالمنطقة المجاورة لقناة مكة (عين زبيدة)[١١٨] مجموعة أكواخ عربية، تحمل اسم مقهى عرفات[١١٩]، وهذه المنطقة بها كثير من المقاهي، وهي تحمل اسم جبل عرفات، وتقع أسفل الجبل[١٢٠]، وبعضها يحمل اسم قهوة عرفات[١٢١].

ويبدو أن بنية بعض المقاهي المتواضعة لم تصمد أمام التقلبات الجوية الحادة وخصوصًا الأمطار، وكان من بينها مقهى عرفات، ومع ذلك لم يجد بعضهم مفرًّا من اللجوء

(١١٦) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٥٧-٥٨.

(١١٧) كين، **ستة أشهر في الحجاز**، ص١١٤.

(١١٨) عين زبيدة: عين عذبة غزيرة الماء، أجرتها أم جعفر زبيدة زوج هارون الرشيد، وهي تنبع من وادي نعمان، ثم تمر في عرفة فتقطع وادي عرنة إلى الخطم، ثم تنحدر إلى منى فمكة، وكانت مصممة بطريقة انسيابية انحدارية، وكانت سقيا أهل مكة إلى أن أجريت عيون أخرى. للمزيد ينظر: البلادي، عاتق بن غيث، **معالم مكة التأريخية والأثرية**، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٩٧.

(١١٩) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥٢؛ بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٨.

(١٢٠) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٨١.

(١٢١) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٨.

إلى مثل هذه المقاهي للاحتماء بها، برغم تبلل ثيابهم، وكان هدفهم الرئيس الحصول على التدفئة اللازمة للتغلب على البرد الشديد الذي يدفعهم أحيانًا للمبيت بالمقاهي، وقد وصف بيركهارت ذلك في (٢٥ من رمضان ١٢٢٩هـ/٩ سبتمبر ١٨١٤م) بقوله: "كنت في حاجة ماسة إلى النار بعد أن تبللت بهذه الطريقة، وأنا أرتدي فقط كساء الإحرام الرقيق...، كانت المقاهي لسوء الحظ قد غمرت بالمياه كذلك فلم نجد مكانًا جافًّا نجلس عليه، كما تم إضرام النار بصعوبة في إحدى الأكواخ العربية الصغيرة والمقاومة للمناخ...، فقمنا بتحضير القهوة"[١٢٢].

ولا شك أن لهذه المقاهي دورًا كبيرًا في التيسير على الحجاج والمسافرين، وبالأخص المقاهي التي تكون في أيام الحج بمنى ومزدلفة وعرفات، ففي هذه المشاعر تمتلئ المقاهي على سعتها ولا سيما ليلاً، حتى إن بعضها لا يبقى فيه مكان خالٍ من كثرة ازدحام الناس للجلوس فيها[١٢٣].

ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من الحجاج الذين كانوا يفيضون أول الليل يحرصون على قضاء ليلتهم بالمقاهي وبالقرب من أضوائها في العراء ليكونوا على أبواب منى قبيل الفجر[١٢٤]، ومثل هذه المقاهي التي تقع في المناطق الجبلية تكون منطقة تجمُّع للحجاج للاستراحة والوقاية من حرارة الشمس، وأبرزها مقهى عرفات ومقاهي شداد المجاورة

(١٢٢) المرجع نفسه، ص٨١-٨٢.
(١٢٣) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٩/٢.
(١٢٤) هيكل، **في منزل الوحي**، ص٨٥.

لآبار المياه العذبة[١٢٥]، وقد ذكر محمد صادق أن مقهى شداد واحد من ثلاثة مقاهٍ موجودة بالجبل المسمى (وادي خريف الراس)[١٢٦]، وهي تقدم خدمات متعددة للحجاج[١٢٧].

وفي منطقة الشبيكة[١٢٨] على أطراف مكة تمتد المقاهي على طول الطريق التي تنطلق منها الحمير كل مساء حاملة رسائل البريد إلى جدة[١٢٩]، ويكثر في المقاهي المذكورة سماسرة جمال النقل (القوافل)، وخصوصًا في موسم الحج، وعبر هؤلاء يؤجر البدو جمالهم للمسافرين إلى جدة والمدينة[١٣٠]. وعمومًا فإن على أطراف مكة بضعة أكشاك لبيع القهوة للداخلين إلى المدينة والخارجين منها[١٣١].

ج - مقاهي المدينة المنورة:

وجد كثير من المقاهي في المدينة المنورة التي تكون في أوج ازدهارها في مواسم الحج، وفي هذا الإطار ذكر محمد صادق أن بجوار الباب المصري بالمناخة[١٣٢] مقاهي

(١٢٥) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٩.
(١٢٦) لم أهتد إلى تعريف له.
(١٢٧) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١.
(١٢٨) الشبيكة: بلفظ تصغير شبكة الصياد، وادٍ قرب العرجاء في بطنه ركايا كثيرة مفتوحة بعضها في بعض، ويقع بين مكة والزاهر على طريق التنعيم، وأصبح حاليًّا جزءًا من الحرم الشريف بعد توسعته. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٤٤٨/٥.
(١٢٩) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٩٦.
(١٣٠) المرجع نفسه، ص٩٧.
(١٣١) كين، **ستة أشهر في الحجاز**، ص١٢٧.
(١٣٢) المناخة: مبرك الجمال، وهو مكان متسع من ضمن المدينة ينزل به الحجاج، وبينها وبين المدينة سور به باب كبير عليه خفر =

من أخشاب، ومن المؤكد أن وجودها في محيط المناخة كان بهدف تقديم خدمات للحجاج المصريين، وغيرهم[١٣٣].

وفي الجنوب الغربي من المدينة وجدت عدد من المقاهي التي تعج بالزبائن طوال النهار، وبجوارها شيدت عدد من الأكواخ والسقائف التي تباع فيها المؤن، وبخاصة الحنطة والتمر والخضار والزبد[١٣٤]، وقد لحظ بعض الرحالين أن القهوة تستهلك بإسراف في المقاهي، وأن العرب شغوفون بها أكثر من شغف الإنجليز والهولنديين بالشاي[١٣٥].

ووجدت مقاهٍ أيضًا في منطقة الحمراء لجأ إليها كثير من الحجاج للاستراحة والوقاية من وهج الشمس[١٣٦]، أما منطقة بئر عباس[١٣٧] فقد وجد بها مقهًى أيضًا[١٣٨]، يهرع إليه الحجاج والمسافرون لتناول الطعام وشرب القهوة وغيرها

= يوصل أيضًا إلى داخل المدينة يسمى الباب المصري الذي يدخل منه المحمل بموكبه، وقد أصبح هذا المكان جزءًا من الحرم النبوي الشريف بعد توسعته. ينظر: صادق، **الرحلات الحجازية**، هامش ٣، ص١٢٧، ص٣٧٨-٣٧٩.

(١٣٣) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٢٧، ص٣٧٩.

(١٣٤) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٧٢.

(١٣٥) المرجع نفسه، ص٣٢١.

(١٣٦) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ٢٠٧/١.

(١٣٧) بئر عباس: بئر قديمة منسوبة إلى العباس أمير الظواهر، ولا يزال الماء فيها، وكانت المحطة الرئيسة قبل المسيجيد، ثم انتقلت المحطة إلى المسيجيد وهجرت بئر عباس، تبعد ثلاثة أكيال تقريبًا جنوبًا غربيًّا من المسيجيد، بطرفها الغربي ربع المستعجلة، وأرضها تسمى النازية. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٥٤/١.

(١٣٨) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ٢١٥/١.

من المشروبات[١٣٩]. وهكذا وجد بالمدينة المنورة كثير من المقاهي التي يستريح بها المسافرون، وتقدم لهم المشروبات وغيرها من سبل الراحة[١٤٠].

د - مقاهي خليص ورابغ وينبع:

وجدت مجموعة من المقاهي التي قدمت خدمات للحجاج في كلٍّ من خليص[١٤١] ورابغ[١٤٢] وينبع، وفي خليص عادة ما تنزل قوافل الحجاج بمنطقة (رأس العين)، حيث توجد عدة مقاهٍ بها[١٤٣]، وعلى مقربه منها عين ماء تجري مجاورة لهذه المقاهي، وبجوارها سوق[١٤٤].

أما رابغ فهي من المناطق الرئيسة التي بها مقاهٍ كثيرة يستريح فيها الحجاج قبل أن يواصلوا تقدمهم صوب مكة، ولا سيما أنها منطقة يُحرم فيها الحجاج المصريون[١٤٥]، وإضافة

---

(١٣٩) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ٢١٦/١.

(١٤٠) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٤٩.

(١٤١) خليص: وادٍ كثير الماء والزرع، واسع على شكل مربع من السهل ضلعه قرابة عشرين كيلاً، يقع شمال مكة على (١٠٠) كيل، يحف به من الغرب جبلا جمدان، ومن الشمال حرة الخليصة، ويصب فيه من الجنوب وادي غران، سكانه قبائل من حرب وزبيد والبلادية. للمزيد ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٥٦٦/٤-٥٦٧.

(١٤٢) رابغ: بلدة ساحلية بين جدة وينبع على بعد ١٥٥ كيلاً شمال جدة، و(١٩٠) كيلاً من ينبع جنوبًا، وهو أحد الموانئ الصالحة لرسو السفن. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٦٥٣/٤.

(١٤٣) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٣٨٤/٢.

(١٤٤) المرجع نفسه، ٣٠٨/١؛ الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٣٥٧.

(١٤٥) المرجع نفسه، **الرحلة العياشية**، ٣٦٤/١.

إلى ما تقدمه مقاهي رابغ من راحة للحجاج كان هناك أناس في محيط هذه المقاهي يبيعون ما يحرص الحجاج على أكله، وهو البطيخ الذي يُطفئ ظمأهم، ويلطف عليهم شدة الحر، ويبيعون أعلاف الدواب، وعلى حد وصف ذلك: "يبيعون العلف والحبحب"(١٤٦).

وتظهر أهمية هذه المقاهي في ظل التقلبات الجوية الحادة مثل الحرارة الشديدة التي تتسبب في موت بعض الحجاج والإبل، وكان هذا الأمر يدفع ركب الحج لدخول هذه المقاهي لتقيهم وهج الشمس، وعلى حد وصف العياشي: "وحينما وصل الركب إلى الصفراء وقع الموت في الإبل والناس، فمات ناس وإبل كثيرة من شدة الحر، وكان من لطف الله بنا أنا لما اشتد الحر عدلنا إلى قهاوٍ على يسار الطريق وأنخنا إبلنا خارجها، ودخلنا وجلسنا فيها ساعة حتى استرحنا واستراحت الإبل، وتوضأنا وصلينا الظهر والعصر"(١٤٧).

أما مقاهي (بندر ينبع) فهي من المقاهي المهمة التي كان يأوي إليها الحجاج، فقد كان ركب الحج يستريح بها لكونها: "أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الرجوع...، وبه الآن سوق للحجاج يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، وبه أفران...، وعشش تُسقى فيها القهوة من أيدي الجوارِي"(١٤٨).

(١٤٦) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٣٩/٢.
(١٤٧) المرجع نفسه، ٣٦٥/١.
(١٤٨) الجواري: جمع جارية. ينظر: العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢٩٩/١-٣٠٠؛ الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٣٤٥.

وكثير من مقاهي ينبع "اتخذها الحجاج والمسافرون مكانًا لاستراحاتهم قبل مغادرة ينبع أو بعد وصولهم إليها"(١٤٩)، وكان الحجاج والمسافرون يتخذون من هذه المقاهي قاعدة لجمع المعلومات من أصحاب المقاهي والمترددين عليها من أهل البلدة وغيرهم عن كيفية التنقل من مكان إلى آخر، وما قد يقابلهم من صعوبات، وما يأملون في الوصول إليه وتحقيقه(١٥٠).

وأبرز مقاهي ينبع توجد في شارع السوق، ولكون ينبع ميناءً رئيسًا فقد تردد عليها كثير من المسافرين والحجاج، ولكثرة المسافرين الذين يستريحون بالمقاهي، ويلقون مخلفاتهم بجوارها تحول محيط بعض المقاهي إلى تلال من المخلفات التي جذبت البعوض، علاوة على إهمال أصحاب المقاهي التنظيف في ظل الضغوط عليها في أثناء موسم الحج، وقد وصف من شاهد ذلك بقوله: "ومن المحال أن تجلس في إحداها دون أن يكون معك مروحة أو مذبة لتذب الذباب بعيدًا عنك"(١٥١).

هـ - مقاهي الوجه:

قدمت مقاهي الوجه للحجاج كثيرًا من الخدمات منذ أن تطأ أقدامهم الميناء، وأغلبية هذه المقاهي كانت تقع على البحر، أي إنها تستقبل الحجاج الذين يستريحون بها، أو

(١٤٩) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٤٠.
(١٥٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٤١.
(١٥١) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٨٧/١.

في مقابل ذلك تكون استراحة للحجاج قبل مغادرتهم بلاد الحجاز[١٥٢]، وقد وُصفت إحدى هذه المقاهي بالقول: "رسونا في الوجه، ووجدنا مقهًى كبيرًا في موقع مرتفع بالقرب من الساحل، فجلسنا فيها، لكن الفرس الذين سبقونا إليها، كانوا قد شغلوا الأماكن الظليلة خارجها...، فكنا مضطرين للمكوث داخل المقهى"[١٥٣].

وفي كثير من الأحيان تكون المقاهي عاجزة عن استيعاب الحجاج، فيحدث زحام شديد ينتج منه مشاجرات بين الحجاج بعضهم بعضًا، وفي أحيانٍ أخرى بين أحد الحجاج وصاحب المقهى، وعمومًا كانت مقاهي الموانئ جنة للحجاج بعد ويلات السفر في عرض البحر، وعلى حد وصف ذلك: "إن سعادتنا بهذا الفردوس...، بعد المعاناة التي قضيناها في سفينتنا"[١٥٤].

ثالثًا: المقاهي على الطرق بين مدن بلاد الحجاز

أ - المقاهي على الطريق بين جدة ومكة:

يحتوي الطريق بين جدة ومكة على جانبيه على مقاهٍ كثيرة، وجد فيها الحجاج والمسافرون خدمات متنوعة، منها: ما يتعلق بوقايتهم من وهج الشمس[١٥٥]، وشرب القهوة، وأخذ قسط من الراحة في حال تعبهم أو كلَّت مطيتهم من طول

(١٥٢) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٢٣٤.
(١٥٣) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦.
(١٥٤) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦.
(١٥٥) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.

الطريق ومشاقه، وفي استطاعة الحجاج والمسافرين أن يبيتوا فيها إذا جن عليهم الليل لوجود أماكن مخصصة للمبيت بها[١٥٦].

وتستقبل مقاهي الطرق عددًا كبيرًا من التجار والمسافرين[١٥٧]، وهي مقامة في مناطق مختارة بعناية قرب "النقاط التي يتوفر فيها الماء"، ورغم أن بعضها كانت صغيرة وهي "سقائف من القصب" فإنها قدمت خدمات جليلة للحجاج والمسافرين، وخصوصًا أنه "يمكن الحصول فيها على القهوة والشاي"[١٥٨]، ويبدو أن حرص كثير من الحجاج للتردد على المقاهي يعود إلى أن بعضهم أدى الفريضة سابقًا، وعرف فائدة شرب القهوة في التغلب على الحرارة والعطش والإرهاق في الرحلة من جدة إلى مكة المكرمة[١٥٩]، ومن لم يؤد الفريضة سابقًا استفاد من خبرة من أدوها سابقًا ونصائحهم.

والجدير بالذكر أن كثيرًا من المقيمين على طول الطريق بين جدة ومكة استفادوا كثيرًا من مرور الحجاج من جدة إلى مكة، فأقاموا مقاهي في مناطقهم، وكان منهم بعض الأعراب الذين كان لهم "عشش عمومية واسعة يسمونها قهاوي"، وإضافة إلى تقديم المشروبات توجد في هذه المقاهي أماكن "يستريح فيها من أراد من الحجاج، وخصوصًا راكبي الحمير

(١٥٦) المازني، إبراهيم عبدالقادر، **رحلة الحجاز**، مطبعة فؤاد، القاهرة، ١٩٣٠م، ص٦٩.
(١٥٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٢.
(١٥٨) ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، ص١٢٧.
(١٥٩) قيومجي، **مصور في الحج**، ص٥٥.

والهجن"، ووُجد في هذه المقاهي ما يلزم الحجاج "من خبز وجبن وبلح وبعض الفاكهة والقهوة والتنباك"[١٦٠]، ويبدو من المنطقي تمامًا القول بأن المقاهي دفعت بعض الأعراب إلى الاستثمار فيها وتقديم جميع أنواع الخدمات للحجاج، وبذلك حققت لهم عوائد، بعيدًا عن عمليات السلب والنهب التي انتهجوها مع الحجاج والمسافرين، أي إنها عملت لتوطين فريق منهم على جانبي الطريق بين جدة ومكة، وكان من أبرز القبائل التي عملت في هذا المجال قبيلتا لحيان[١٦١] والمطارفة[١٦٢] اللتان أقام أبناؤهما كثيرًا من المقاهي في مناطق نفوذهم على الطريق بين جدة ومكة[١٦٣].

وفي المدة التي تسبق الحج تتدفق سفن الحجاج على جدة، وهو ما يساعد على رواج نشاط المقاهي على طول الطريق بين جدة ومكة، ولا سيما أن الجمال تقطع المسافة في ليلتين لكون القوافل تستريح بالمقاهي على طول الطريق، والأمر نفسه ينطبق على الرحلات الخفيفة بالحمير[١٦٤].

أما المقاهي على الطريق بين جدة ومكة فقد كان أولها

(١٦٠) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٨-١٩.

(١٦١) لحيان: وهم بطن من بطون هذيل من العدنانية، وهم: بنو لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ينظر: كحالة، عمر رضا، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ٣/١٠١٠.

(١٦٢) المطارفة: بطن من بطون هذيل يقطنون في وادي فاطمة. ينظر: كحالة، **معجم قبائل العرب**، ١١٠٨/٣.

(١٦٣) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٣-٥٤.

(١٦٤) المرجع نفسه، ص٣٠-٣١.

مقهى رأس القائم[١٦٥]، وهذا المقهى أقيم بالقرب من مخفر رأس القائم الذي أقام به عساكر نظامية وبعض الضباط[١٦٦]، وهو أول المقاهي التي يستريح به الحجاج، ويباع فيه الشاي والقهوة كغيره من المقاهي على طول الطريق، ويلي هذا المقهى مقهى[١٦٧] الرغامة[١٦٨]، وهو بالقرب من بئر الرغامة[١٦٩]، وعادة ما تستريح قوافل الحج بالرغامة، وهو ما ذكره إبراهيم رفعت، وبعد ذلك يشد ركب الحج الرحال إلى مقهى جرادة، وهو متسع البناء ومسقوف، وعلى بعد (١٠٠٠) متر قلعة الكنانة، وبجوارها مقهًى يحمل الاسم نفسه (الكنانة)[١٧٠]، وهذا المقهى من الاستراحات الرئيسة للحجاج على الطريق، وهو على يسار الطريق[١٧١]، وكان مقهى (البياضة) من المقاهي التي يتوقف عندها الحجاج[١٧٢]، وهو قرب القلعة البيضاء[١٧٣]، وعدد من المقاهي بين جدة ومكة

(١٦٥) مقهى رأس القائم: كان محطة رئيسة لاستراحة ركاب الحمير من جدة إلى مكة. ينظر: صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٠٦.

(١٦٦) ذكر محمد صادق أن عدد العسكر برأس القائم أحد عشر عسكريًّا للمحافظة على الأمن. ينظر: صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٠٦.

(١٦٧) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٠٦.

(١٦٨) الرغامة: الأرض الرملية التي تقع على يمين الخارج من جدة تجاه مكة، وهي حاليًّا جزء من مدينة جدة. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٦٩٩/٤.

(١٦٩) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٦٩.

(١٧٠) رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٥/١-٢٦.

(١٧١) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٨٢، ٣٠٧.

(١٧٢) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٦٩.

(١٧٣) رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٦/١.

اختيرت بعناية قرب آبار المياه على الطريق، وبالقرب من قلعة الكتانية الثانية يوجد مقهًى[١٧٤]، ويقع على بعد ساعة بمسير الجمال مقهًى آخر يُسمى الفرقد على يسار الطريق[١٧٥]. وعلى الرغم من أن أغلبية هذه المقاهي عادية وإمكاناتها ضعيفة فإنها كانت ملاذًا آمنًا للحجاج والمسافرين.

وقد قدمت كثير من هذه المقاهي القهوة والمرطبات وجميع الخدمات، وذكر بيركهارت نقلاً عن آخرين أن هذا الطريق كان عليه اثنا عشر مقهًى في عام ١٨١٤م: "تقدم المرطبات من كل نوع إلى المسافرين بين جدة والمدينة المقدسة"، وقد تسبب انطلاق الرحلات من جدة إلى مكة ليلاً في قلة عدد هذه المقاهي، ولم يكن هذا هو السبب المباشر لتدهور أحوال هذه المقاهي وغلق بعضها أو هجرها وخرابها، بل إن سوء تصرف الجنود العثمانيين مع أصحاب هذه المقاهي كان السبب المباشر لخرابها وتركها خاويةً على عروشها، إذ كانوا يترددون عليها ويأخذون ما شاؤوا من مشروبات وغيرها بالإكراه دون دفع شيء، "ويشرف على العدد القليل الباقي بعض العرب من قبيلة لهيان...، والمطارفة وعائلاتهم من البدو، ويعيشون بين التلال مع قطعانهم"[١٧٦].

والجدير بالذكر أن أبرز المقاهي التي كان لها دور كبير في خدمة الحجاج على مستوى المأكولات والمشروبات أو على

(١٧٤) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٤-٢٦.
(١٧٥) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٨٢، ٣٠٧.
(١٧٦) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٣-٥٤.

مستوى المبيت هي مقاهي[١٧٧] بحرة[١٧٨]، وقد سماها بعض الحجاج ببحرة الرغاء[١٧٩]، وقد لحظ من ترددوا على مقاهي جدة ومقاهي بحرة وجود ارتفاع في أسعار البن في بحرة بنسبة (٣٠٪) مقارنةً بالسعر في أسواق جدة[١٨٠]، وهو أمر مرتبط بتكاليف النقل وأوضاع المنطقة في الداخل، ولهذا ترتفع أسعار القهوة في مقاهي الطريق بين جدة ومكة لقلة المقاهي على الطريق ولغلق بعضها بسبب تعديات العسكر عليها كما سبق القول.

والجدير بالذكر أن مقاهي بحرة كانت استراحات رئيسة لقوافل الحج، وبها أماكن للمبيت، وعلى حد وصف إبراهيم رفعت: "وببحرة جملة قهاوٍ قد بتنا بها ليلة السبت غرة ذي الحجة ١٣٢٠هـ (٢٨ فبراير ١٩٠٣م)، وارتحلنا منها في س ١٢ آخر الليل"[١٨١].

وكانت حدا من ضمن المحطات الرئيسة الواقعة على الطريق بين جدة ومكة، فقد كان الحجاج يستريحون في

(١٧٧) المازني، **رحلة الحجاز**، ص٦٩.

(١٧٨) بحرة: بلدة عامرة بين مكة وجدة في منتصف المسافة بينهما، وسكانها بنو جابر والمعانية من حرب، وخليط من الناس، وكانت تعرف بالقرين عندما مر بها ابن جبير سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م). ينظر: البلادي، **معجم البلاد الحجازية**، ١/١٧١.

(١٧٩) سماها إبراهيم رفعت بحرة الرغاء، مع أن هذا الاسم يطلق على المكان المعروف اليوم باسم البحرة قرب الطائف. ينظر: رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٦؛ البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٢/١٧٠-١٧١.

(١٨٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٤.

(١٨١) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٧.

قهوتها، وعلى حد وصف العياشي عنها: "في قرية تسمى حدا"[١٨٢]، والجدير بالذكر أن بعض من شاهد مقهى حدا أكد أنه أكبر المقاهي على الطريق بين جدة ومكة[١٨٣].

وكان مقهى العبد[١٨٤] (أو المعروف بمقهى سالم)[١٨٥] الواقع على مقربة من بئر تسمى بئر البجادية من ضمن المقاهي التي يتردد عليها الحجاج[١٨٦]. وعلى بعد نحو ساعة يقع مقهى المقتلة[١٨٧]، ويليه مقهى البستان[١٨٨]، وهو على بعد نحو ثلاث ساعات من مكة، وهو من المقاهي التي يتردد عليها كثير من الحجاج[١٨٩]، وجميع هذه المقاهي تقع على يمين الطريق[١٩٠].

واستمر إبراهيم رفعت في ذكر المقاهي على الطريق بقوله: "بلغنا قلعة الشميسي[١٩١]...، وبقرب القلعة قهوة

(١٨٢) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٥٤/٢.
(١٨٣) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٧١.
(١٨٤) مقهى العبد: هذا المقهى يستمد اسمه من قلعة العبد المعروفة أيضًا بقلعة سالم. ينظر: صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٨٢، ص٣٠٧؛ رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٦/١.
(١٨٥) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ١٨-١٩.
(١٨٦) رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٦/١.
(١٨٧) المقتلة: مفعلة من القتل، مكان من بلدح إذا تجاوز أم الدود، حيث يتسع الوادي، وجاء في بعض الرحلات أنها كانت تعرف بمقتلة الكلاب. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٦٤٢/٨.
(١٨٨) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٨٤، ٣٠٨.
(١٨٩) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٢١.
(١٩٠) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٨٤، ٣٠٨.
(١٩١) الشميسي: هي الحديبية، وقد حفر فيها شخص يسمى شميسًا =

وبعض أكواخ"[١٩٢]، وقهوة الشميسي هذه هي المعروفة بقهوة الحديبية[١٩٣]، وقد اختير موقعها بعناية، فقد أورد محمد صادق أن الطريق يتسع بين الجبال عند مقهى الشميسي[١٩٤].

ومن ضمن هذه المقاهي المقهى المقابل لـ "التنعيم[١٩٥]...، مررنا عليها قرب المغرب"[١٩٦]، وهذا المقهى يباع فيه المأكولات والقهوة، وغيرها من المشروبات التي ظهرت بمرور الزمن كالشاي، وغيره[١٩٧].

ويلي ذلك مقهى المعلم، ويبعد "عن مكة بنحو ميل"[١٩٨]، وأغلبية هذه المقاهي شبه أكواخ، ومع كونها عادية فإن الحجاج يجدون المشروبات والراحة التي تعينهم على مواصلة رحلتهم[١٩٩]. وهكذا فإن الطريق بين جدة ومكة أحد أبرز الطرق التي يعبرها الحجاج، إضافة إلى دوره في نقل السلع والبضائع من ميناء جدة إلى مكة، ولذلك فمن الطبيعي أن

= بئرًا، فسميت بئر شميس، ثم عرفت بالشميسي، تبعد (٢٢) كيلاً عن مكة في طريق جدة، وليست ببعيدة عن الحرم. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٦/٩٤٧-٩٤٨.

(١٩٢) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٧-٢٨.

(١٩٣) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.

(١٩٤) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص١٨٤.

(١٩٥) التنعيم: مكان بين مر وسرف، بينه وبين مكة فرسخان، ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٨/٦٢٨؛ البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٢/٢٨١.

(١٩٦) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.

(١٩٧) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٣٤١.

(١٩٨) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٩.

(١٩٩) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ١٨-١٩.

تنتشر المقاهي على جوانبه[٢٠٠].

ومن الجدير بالذكر أنه وجدت مقاهٍ أخرى على الطريق بين جدة ومكة، لكن لم يذكر اسمها أو موقعها، ووردت غامضة، فعلى سبيل المثال ذكر العياشي أحدها بأنه يقع: "حول مزرعة هناك كبيرة، يجلب منها بطيخ كثير إلى مكة مشهور عندهم بالجودة"، وذكر آخر بقوله: "عندما يريد الذاهب الصعود إلى جبال يمر الطريق بواسطتها"، واستعمل الأسلوب نفسه عند ذكر مقهى آخر، فقال أنه يقع: "عند منقطع الجبال حيث ينحدر الذاهب إلى مكة"[٢٠١]. ولوقوع هذه المقاهي على طرق الحج، وأنها مقامة لخدمة الحجاج والمسافرين فقد كانت أبوابها مفتوحة ليلاً ونهارًا في موسم الحج، وهو ما يتضح من حديث المترددين عليها من الحجاج[٢٠٢].

وهكذا يتضح أن عدد المقاهي على طول الطريق بين جدة ومكة تزايد بمرور الزمن، فقد ذكر العياشي أن عددها في زمن رحلة حجه ومجاورته في المدة من (١٠٧١-١٠٧٤هـ/ ١٦٦١-١٦٦٣م) بلغت ثمانية[٢٠٣]، وذكر بيركهارت عام (١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م) أنها بلغت اثني عشر مقهًى، وهو العدد نفسه الذي ذكره شارل ديديه سنة (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م)[٢٠٤]، وقد زاد هذا العدد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين

(٢٠٠) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٦٠.
(٢٠١) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.
(٢٠٢) الكردي، **التاريخ القويم**، ٢/١٧٨.
(٢٠٣) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.
(٢٠٤) ديديه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٦٩.

الميلادي إلى "بضع عشرة قهوة"، كما ذكر إبراهيم رفعت[٢٠٥].

ب - المقاهي على الطريق بين مكة والطائف:

وجدت مجموعة من المقاهي على الطريق بين مكة والطائف التي كان المارة يستريحون فيها، وقد وصف العياشي هذا الأمر بقوله: "ومررنا على طريق الحاج إلى منى ثم إلى مزدلفة، ثم إلى بسيط عرفة، ثم تركنا الموقف شمالاً، وأنخنا هناك في قهوة قريبًا من نصف الليل، والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوٍ يستريح المارة بالنزول فيها"[٢٠٦]، وشراء ما يحتاجون إليه مِن طعام خفيف وبخاصة الخبز والجبن والزيتون وغيره[٢٠٧]، مثلما هو الأمر على الطريق بين جدة ومكة[٢٠٨].

وكان كثير من هذه المقاهي ملاذًا للحجاج تقيهم من الحرارة الشديدة، ووصف العياشي هذا الأمر بقوله: "ثم صلينا الصبح في الميقات، وذهبنا ومررنا على القهوة التي بتنا بها قبل عند الطلوع أي طلوع الشمس، وانحدرنا مع العقبة الكؤود عقبة كرا[٢٠٩]...، وما وصلنا إلى القهوة التي بسفح الجبل حتى اشتد النهار، وحمي وطيس الهجير، فاتقينا بأخصاصها وهج

(٢٠٥) رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٤/١.
(٢٠٦) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٦٧/٢.
(٢٠٧) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٦/٢-١٧٧.
(٢٠٨) الورثيلاني، **نزهة الأنظار**، ٥١٢/٢.
(٢٠٩) كرا: منطقة فضاء واسع ومرعًى وماؤها حفائر مختلفة، منها ما هو مالح جدًّا ومنها ما هو دونه، وكرا أرضها مدورة الشكل كالكرة، وهي الحد بين بلي وجهينة جنوب الوجه. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٢٥/١.

الظهيرة إلى أن فاء الفيء، فآثرنا الركاب...، وما وصلنا وادي نعمان الأدراك[٢١٠] إلا بعد العصر، وسايرناه مع العشي...، إلى أن وصلنا إلى القهوة التي هي على حد بسيط عرفات بين العشاءين، ونزلنا بها في أرغد عيش، حول عين من الساقية تجري على وجه الأرض...، ومررنا بنمرة"[٢١١].

وكان مقهى كرا أيضًا من ضمن المقاهي المهمة التي يتردد عليها الحجاج على الطريق بين مكة والطائف، ولا يقدم للحجاج إلا القهوة والماء فقط. وتعد هذه المقاهي الموجودة في محيط جبل كرا نقاط مهمة لالتقاط الأنفاس، إذ إن طريقه شديدة الوعورة والانحدار[٢١٢]، لذلك لجأ إليها الحجاج والمسافرون للاستراحة والتقاط الأنفاس[٢١٣].

واستمر العياشي في ذكر دور المقاهي على الطريق بين مكة والطائف بقوله: "وقربنا من جبل كرا، فعدلنا يمينًا مع بعض تلك الهضاب، وآوانا الحر إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام، حولها ماء صافٍ يجري على حصباء كالزبرجد، عذب بارد، سهل التناول للصادر والوارد، ما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكانًا أشبه ببلادنا منه"[٢١٤]. وهو ما يوضح أن

(٢١٠) وادي نعمان: واد كبير من أودية الحجاز التهامية، يأخذ أعلى مساقط مياهه من جبال كرا وعفار وما حولها، حيث تتكون له هناك روافد عظيمة كثيرة. للمزيد ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٩/١٧٥٣-١٧٥٤.

(٢١١) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٧٨.

(٢١٢) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٦٠-٦١.

(٢١٣) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٨١.

(٢١٤) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٦٧-١٦٨.

أغلبية المقاهي كانت على مقربه من مصادر المياه، والجدير بالذكر أن كثيرًا ممن ذكر المقاهي على الطريق بين مكة والطائف لم يذكر أسماءها اكتفاء بذكر المناطق الرئيسة الموجودة فيها(٢١٥).

وقد ذكر العياشي أنه نزل بمقهًى قرب جبل تهامة(٢١٦) الكبير، بقوله: "ثم وصلنا إلى قهوة هناك ونزلنا بعد العشاء، وطلبنا خصًّا يكننا من شدة البرد، فأدخلونا محلًّا أوقدوا فيه نيرانًا عظيمة...، وقضينا عجبًا من شدة الحر والبرد معًا في المكانين المتقاربين"(٢١٧). وهكذا يتضح دور المقاهي في وقاية الحجاج من شدة الحر والبرد على الطرق بين مدن بلاد الحجاز(٢١٨).

وقد ظهر جليًّا كثرة المقاهي على الطريق بين مكة والطائف من حديث بيركهارت بقوله: "على الطريق كلما توقفنا عند المقاهي"(٢١٩)، وفي موضع آخر قال: "ووصلنا بعد غياب الشمس إلى المقاهي المذكورة سابقًا، الواقعة على طرف الجبل (جبل قرى)، حيث تترجل القوافل من مكة، وقمنا هنا بإضرام نار كبيرة، واستأجرنا قدرًا فخارية من العرب

(٢١٥) الورثيلاني، **نزهة الأنظار**، ٥١٣/٢.
(٢١٦) تهامة: سميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها، وهو من التهم، أي شدة الحر وركود الرياح، ويقال: تهم الحر إذا اشتد، ويقال: سميت بذلك لتغير هوائها. للمزيد ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٢٨٤/٢.
(٢١٧) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٦٨/٢.
(٢١٨) الورثيلاني، **نزهة الأنظار**، ٥١٣/٢.
(٢١٩) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٧٨.

أعددنا فيها بعض الأرز للعشاء"[٢٢٠]. وهكذا فإن موسم الحج يحقق مكاسب كثيرة للأعراب، سواء أصحاب المقاهي أم من لديهم قدور طهي أجروها للحجاج والمسافرين على طول طرق الحج.

ومن أبرز المقاهي على الطريق بين مكة والطائف مقهى شداد، وهذا المقهى من المقاهي الشهيرة التي كان يتردد عليها الحجاج لشرب القهوة والتزود بالماء وتفادي حرارة الظهيرة، وتكون هذه الحرارة على أشدها في حال مجيء موسم الحج في شهور الصيف (٨ سبتمبر)[٢٢١].

أما الهدا[٢٢٢] فبها مقاهٍ مهمة وفسيحة يأوي إليها الحجاج، ويتمددون فيها على سجاجيد، وبعض التجار كانوا يأتون بمنتجات الطائف، وبخاصة العنب لبيعه بجوار المقاهي للمترددين عليها، وكان لبعض أصحاب المقاهي دور في معاونة الحجاج والزوار على ترتيب حمولتهم، وكان بهذه المقاهي أماكن مخصصة للنوم، وبين حينٍ وآخر كان الجنود العثمانيون يقتحمون المقاهي القريبة من تجمعاتهم ويستولون على المياه الموجودة بها، وعلى حد وصف ذلك في إحدى الحالات: "وبعد وصولنا بقليل مرت فصيلة من الجنود ونصبوا خيمهم على مسافة أبعد بقليل في السهل، ثم دخلوا إلى المقاهي وأخذوا الماء العذب كله الذي أُحضر من بئر تبعد مسافة

(٢٢٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨٠.
(٢٢١) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨٠-٨١.
(٢٢٢) الهدا: منزل بين مكة والطائف. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ١٨٢٧/٩.

نصف ساعة، واحتفظوا بها في الهدا في جرار كبيرة"[٢٢٣]، وربما تسببت أفعال هؤلاء الجنود بتخريب المقاهي وهجرة أصحابها ولجوئهم إلى أعمال السلب والنهب، وهو ما حدث سابقًا لأصحاب المقاهي على الطريق بين جدة ومكة.

وعلى بعد ساعتين من الهدا يوجد مقهى شميسة، وهو قريب من بئر جبل شميسة، وبعد أربع ساعات من الهدا يوجد مقهى سالم، ويليه مقهى الحجلية[٢٢٤]، الذي يبعد سبع ساعات عن الهدا، وهو قرب بئر كبيرة تزود المارين بالماء، سواء الخارجون من مكة أم القادمون إليها[٢٢٥]. وعمومًا فإن في طريق الحج كثيرًا من المقاهي المتخذة من العشش والخيام، والتي تزخر بجميع أنواع "الأكل والشرب والقهوة والشاي والمثلجات والفواكه"[٢٢٦].

رابعًا: خدمات المقاهي للحجاج

قدمت المقاهي بمدن بلاد الحجاز وعلى الطرق فيما بينها خدمات كثيرة للحجاج، منها ما يتعلق بتقديم المأكولات والمشروبات والتدخين، علاوة على أن بعضها كانت أماكن مخصصة لمبيت الحجاج، وتفادي التقلبات الجوية، إضافة إلى أنها كانت مأوًى لوسائل المواصلات الخاصة بالحجاج.

---

(٢٢٣) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٤-٥٥.

(٢٢٤) الحجلية: ربما سميت كذلك نسبة إلى جبل حجلة الذي يقع في الحدود الشمالية للحرم، وهو مشرف على وادي فخ من الشمال. ينظر: البلادي، **معجم معالم الحجاز**، ٤١٧/٢.

(٢٢٥) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٥.

(٢٢٦) الكردي، **التاريخ القويم**، ٢٤١/٢.

ويمكن إلقاء مزيد من الضوء على ذلك في الآتي:

أ - خدمة الطعام والشراب:

لم يقتصر دور المقاهي في خدمة الحجاج ببلاد الحجاز على تقديم القهوة وغيرها من المشروبات فقط، فقد كان لكثير منها على الطرق وفي قلب المدن دور في بيع المؤن التي يستعملها الحجاج في طريقهم، ومنها الحنطة والتمر والخضار والزبد(٢٢٧)، والمأكولات الخفيفة والمهلبية(٢٢٨).

ومن ضمن الخدمات الغذائية التي كانت تقدم للحجاج الطيور المطهية، بل والخرفان المشوية أيضًا، بمعنى أن المقاهي قدمت للحجاج كل ما تشتهي أنفسهم من طعام، وأبرز هذه المقاهي التي قدمت ذلك مقهى حدا(٢٢٩).

وهناك كثير من المقاهي التي يهرع إليها الحجاج والمسافرون لتناول الطعام في الأوقات المختلفة من اليوم، فإذا حان وقت الإفطار على مقربة من مقهًى بادر الحجاج بدخوله، وهكذا ينطبق الأمر على بقية الوجبات الأخرى(٢٣٠)، وكثير من الحجاج كانوا يشترون ما يحتجون إليه من مؤن غذائية عند رحيلهم من المقاهي(٢٣١)، وخصوصًا الطعام الخفيف الحمل كالخبز والجبن والزيتون(٢٣٢) والبلح وما شابه ذلك، وأغلبية المقاهي

(٢٢٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢٧٢.
(٢٢٨) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧١-٢٧٢.
(٢٢٩) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٧١.
(٢٣٠) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ٢١٦/١.
(٢٣١) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٧/١-١٧٨.
(٢٣٢) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٦/٢-١٧٧.

التي تبيع هذا وذاك واقعة على الطرق بين المدن[٢٣٣].

وإضافة إلى الخدمات المباشرة التي تقدمها بعض المقاهي للحجاج وجدت جملة من الخدمات غير المباشرة في محيط المقاهي التي لا تبيع المأكولات، فقد كان باعة الزبد والعسل والزيت والخل وغيره ينتشرون في محيطها[٢٣٤]، وفي بعض الأحيان يمتد مفعول هذه الخدمات إلى بعد الخروج من المقاهي مثل الاستعانة بحبال المقاهي ودلائها لقضاء متطلبات خارج حدود المقاهي[٢٣٥]، وبعض هذه المتطلبات قد يستفيدون منها في طريقهم داخل بلاد الحجاز، وأحيانًا تمتد هذه الخدمات لترافقهم إلى حين عودتهم إلى ديارهم.

أما الفواكه فقد كانت تباع في بعض المقاهي، وبخاصة المقاهي النائية الواقعة على الطرق بين المدن[٢٣٦]، أما المقاهي الواقعة في قلب المدن فلم تكن تبيع الفاكهة، بل كان في محيطها باعة جائلون يبيعون ذلك للحجاج، وبخاصة الفواكه الغنية بالمياه مثل البطيخ الذي يمد الحجاج بالمياه اللازمة التي ترطب أجسادهم في الحر الشديد[٢٣٧]، وكانت فواكه الطائف تحظى بشهرة واسعة، ولا سيما العنب الذي يلقى رواجًا في مواسم الحج في الصيف، فيباع في محيط المقاهي[٢٣٨]،

(٢٣٣) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٨-١٩.
(٢٣٤) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٣.
(٢٣٥) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٦٧/٢.
(٢٣٦) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ١٨-١٩.
(٢٣٧) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٣٩/٢.
(٢٣٨) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٤.

وعلى أطراف بعض المقاهي المجاورة للحدائق يمكن للحجاج شراء الفاكهة[٢٣٩].

أما المشروبات فإننا لسنا هنا بصدد الحديث عن مشروب القهوة الذي تقدمه جميع المقاهي بلا استثناء، فإن كثيرًا منها قدمت للحجاج المشروبات الأخرى الساخنة والباردة على حدٍّ سواء[٢٤٠]، ومن أبرز هذه المشروبات الشاي والسحلب[٢٤١] والحليب وما شابه ذلك[٢٤٢]، وكثير من المقاهي كان بها قلل الماء البارد، وهو أفضل ما يتمناه الحاج المتنقل من مكان إلى آخر بعد رحلة شاقة في وهج الشمس[٢٤٣]، وكان بعض السقائين ينتشرون في محيط المقاهي ويبيعون للحجاج الماء البارد في جرار صغيرة معطرة[٢٤٤]، وبعض المقاهي لم يكن يقدم فيها سوى القهوة والماء[٢٤٥].

والجدير بالذكر أن الطريق بين مكة وجدة كان به كثير من المقاهي التي تقدم المرطبات من كل نوع[٢٤٦]، وعمومًا كان أغلبها تقدم للحجاج كل ما يتعلق بالطعام والشراب، بل وأدوات الطعام والشراب أيضًا[٢٤٧].

(٢٣٩) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٢١.
(٢٤٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٣.
(٢٤١) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧١-٢٧٢.
(٢٤٢) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٧١.
(٢٤٣) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦-١٧٨.
(٢٤٤) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٣.
(٢٤٥) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٦٠.
(٢٤٦) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٣.
(٢٤٧) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٥٤-١٥٥.

ب - الراحة ووسائل التسلية:

قدمت المقاهي في مختلف المناطق الراحة للحجاج كي يواصلوا رحلتهم إلى مقصدهم صوب مكة[٢٤٨]، وكانت مدة هذه الراحة تمتد أحيانًا إلى ساعة لالتقاط الأنفاس[٢٤٩]، وقد تطول هذه الراحة إلى بضع ساعات على الطرق الممتدة بين المدن، وخصوصًا للحجاج راكبي الحمير والخيول، أما الحجاج في الشقادف[٢٥٠] فأفضل حالاً وراحة[٢٥١]، وكان لكثرة المقاهي على الطرق بين المدن دور في راحة الحجاج، إذ إنه في حال شعور أحد الحجاج بالتعب يهرع إلى أقرب مقهًى، وكان ذلك نموذجيًّا على الطريق بين جدة ومكة، حيث وجدت به مقاهي كثيرة[٢٥٢]، وقد وصف العياشي هذا الأمر بقوله: "بين مكة وجدة...، قهاوي ينزل المارون في كل قهوة فيستريحون"[٢٥٣]، وفي موضع آخر قال: "وخرجنا...، ننيخ بالقهاوي المذكورة للاستراحة"[٢٥٤].

وعادة ما كانت مقاهي الموانئ محطات رئيسة لاستراحة الحجاج لكونها تستقبلهم بعد رحلة بحرية في الأغلب تكون طويلة وشاقة، فعلى سبيل المثال كانت مقاهي بندر ينبع

(٢٤٨) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٤٩.
(٢٤٩) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٣٦٥/١.
(٢٥٠) الشقادف: جمع شقدف، وهو سرير من الخشب مغلف بقماش سميك يوضع على ظهر الجمل. ينظر: البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٢٠٧.
(٢٥١) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٨-١٩.
(٢٥٢) رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٤/١-٢٥.
(٢٥٣) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٥٤/٢.
(٢٥٤) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٦٠/٢.

محطة رئيسة لاستراحة الحجاج القادمين من البحر[٢٥٥]، والأمر نفسه لمقاهي الوجه التي كانت محطات استراحة للحجاج[٢٥٦]، والاستراحة في المقاهي على طرق الحج بين المدن كانت مرتبطة بما يواجههم من صعوبات وطول المسافات بين المناطق، وهذا الأمر دفعهم للراحة ليستعيدوا نشاطهم من جديد[٢٥٧]، ومن جانبهم حرص بعض أصحاب المقاهي على توفير سبل الراحة للحجاج، وعلى سبيل المثال في أحد مقاهي الهدا كان الحجاج يتمددون على سجاد[٢٥٨]، وأغلبية الحجاج كانوا يستريحون وقت القيلولة (في الظهيرة) بأحد المقاهي إلى حين انكسار موجة الحر[٢٥٩]، وكثير من هذه المقاهي كانت موجودة في محيط الحرمين[٢٦٠].

وعلى صعيد الترفيه فقد حرص بعض الحجاج الأثرياء على الاتجاه إلى مقاهٍ معينة تتسم بالحسن والجمال، لتتناسب مع مكانتهم الاجتماعية ولتدخل عليهم البهجة والسرور، ومثل هذه المقاهي كانت موجودة بمدن الحجاز الرئيسة كجدة ومكة على سبيل المثال، ففي مكة كانت أفخم المقاهي تقع في حي أجياد[٢٦١].

(٢٥٥) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١/٢٩٩-٣٠٠؛ الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٣٤٥.
(٢٥٦) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١/١٧٦-١٧٨.
(٢٥٧) المازني، **رحلة الحجاز**، ص٦٩.
(٢٥٨) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٤.
(٢٥٩) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١-٣٥٢.
(٢٦٠) كين، **ستة أشهر في الحجاز**، ص١٥٤.
(٢٦١) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٥٧-٥٨.

وفي السياق نفسه حرص بعض أصحاب المقاهي في مكة وجدة وغيرها من المدن على إدخال البهجة والسرور على الحجاج وغيرهم من المترددين على مقاهيهم، فوجد فيها بعض وسائل التسلية والترفيه التي تخفف على الحجاج مشاق السفر وويلاته عبر الطرق الوعرة، وتدخل عليهم البهجة والسرور وتنسيهم ما عانوه، مثل لعبة المنقلة[٢٦٢] التي هي اللعبة الأكثر وجودًا واستعمالاً في المقاهي عامة، وكذلك لعبة الداما[٢٦٣]، ولعبة الشطرنج[٢٦٤]، وحرص أصحاب بعض المقاهي على وجود مراكن للزروع والرياحين والأزهار العطرة التي تعطر المكان، وتدخل السرور والبهجة والراحة للناظرين إليها[٢٦٥].

وعلى صعيد الراحة الربانية خصص بعض أصحاب المقاهي مساحات ملاصقة لمقاهيهم، وجعلوها مساجد ليؤدي فيها الحجاج والمسافرون الصلاة، وكان مقهى حدا على الطريق بين جدة ومكة رائدًا في هذا المجال[٢٦٦]، ومن المؤكد أن هذا الأمر كان يشجع الحجاج على أن تكون حدا محطة راحة رئيسة، وهو ما عاد على أصحاب المقاهي بالخير الدنيوي والديني.

---

(٢٦٢) للمزيد عن هذه اللعبة ينظر: نيبور، **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٤٤-١٤٥.

(٢٦٣) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٣.

(٢٦٤) الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٢٩٢.

(٢٦٥) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٧/٢.

(٢٦٦) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٧١.

ج - خدمة المبيت:

يعد المبيت أحد أبرز الخدمات التي قدمتها المقاهي للحجاج الذين كانوا يجوبون البلدان، وتستغرق رحلة حجهم بضعة أسابيع، وأحيانًا بضعة أشهر، حسب المكان الذي قدموا منه، وهي من أفضل الخدمات التي قدمتها المقاهي للحجاج الذين وجدوا ملاذهم الآمن فيها لوجود غرف مخصصة لمبيت الحجاج، وفي هذه الغرف أسِرَّة كثيرة جيدة الخامة والصنع ومزخرفة، ومثل هذه المقاهي تقع في المدن الساحلية، وعلى رأسها جدة[٢٦٧]، ولأن هذه المقاهي واقعة في الموانئ وعلى طرق الحج بين المدن فقد كانت تشتمل على صناديق لحفظ مقتنيات الحجاج وأموالهم حفاظًا عليها من السرقة[٢٦٨]، وعادة ما يستغل الحجاج والمسافرون مدة الإقامة في المقاهي لترتيب أحمالهم وأثقالهم[٢٦٩].

والجدير بالذكر أن مقاهي الوجه كانت أقل في مستوى الاستعداد للمبيت من مقاهي جدة، بحكم أنها نائية مقارنةً بجدة الميناء الرئيس لاستقبال الحجاج لقربه من مكة المكرمة، وكان الحجاج المترددون عليها يبيتون على مصاطب مفروشة بالحصير، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هذه التجهيزات العادية في نظر الحجاج فردوسًا مقارنة بما يلاقونه من ويلات في البر والبحر[٢٧٠].

(٢٦٧) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٥٤/٢-١٥٥.
(٢٦٨) الكردي، **التاريخ القويم**، ١٧٨/٢.
(٢٦٩) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٥.
(٢٧٠) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٦/١.

أما مقاهي الطرق بين المدن فقد كان مستوى المبيت بها أقل بكثير من المبيت في مقاهي المدن، وإن كانت أحوال السفر على الطرق الوعرة قد فرضت على الحجاج افتراش أرضية المقاهي من أجل المبيت[٢٧١]، في ظل الزحام في موسم الحج، فربما تبيت مجموعة كبيرة من الحجاج أو قافلة[٢٧٢] في مقهًى من المقاهي على طريق الحج[٢٧٣]، فمع كثرة التردد على المقاهي في أثناء موسم الحج كان بعض أصحاب المقاهي يخلون أماكن مبيتهم هم وأُسرهم للحجاج، وهو ما فعله صاحب مقهى شداد مع محمد صادق والمرافقين له حينما أخلى لهم خص أسرته[٢٧٤]، وكانت المقاهي بين مكة والطائف أيضًا مقصدًا للحجاج للمبيت فيها إذا جن عليهم الليل وهم بالطريق[٢٧٥].

ومن الجدير بالذكر أن المقاهي الفسيحة التي تسع نزلاء أكثر، والواقعة في على الطرق الممتدة، كانت مقصدًا لقوافل الحج الرسمية، فعلى سبيل المثال كانت مقاهي بحرة وجهة أمراء الحج المصريين الذين كانوا يبيتون فيها كما أكد إبراهيم رفعت أمير الحج المصري[٢٧٦]، وكان الأمر مشابهًا أيضًا لمقاهي الهدا التي كان بها مأوًى للحجاج[٢٧٧].

(٢٧١) المازني، **رحلة الحجاز**، ص٦٩.
(٢٧٢) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٤-٢٦.
(٢٧٣) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٣٥٢.
(٢٧٤) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١-٣٥٢.
(٢٧٥) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٢/١٧٨.
(٢٧٦) رفعت، **مرآة الحرمين**، ١/٢٦.
(٢٧٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٥٥.

د - الوقاية من التقلبات الجوية:

كانت المقاهي ملاذًا آمنًا للحجاج من التقلبات الجوية صيفًا وشتاءً، ففي الصيف يمكن الاحتماء بظلها من وهج الشمس[٢٧٨] الذي كان يتسبب في موت كثير من الحجاج ودوابهم، وكان ذلك يدفع كثيرًا من الحجاج للهرولة إلى أقرب مقهى للاحتماء بظله[٢٧٩]، ولا سيما على الطرق الصحراوية بين المدن[٢٨٠] في ظل الحرارة الشديدة، ويمكث الحجاج بالمقاهي مدة إلى حين زوال "أهوية السموم"[٢٨١]، وعادة ما كان الحجاج يمكثون في ظل السقائف إلى بعد العصر، وحينما تنكسر حدة الحرارة ينطلقون إلى حيث يريدون[٢٨٢].

وقد حرص كثير من أصحاب المقاهي على تظليل الساحات الأمامية لها لتقي المترددين عليها وهج الشمس في حال امتلاء المقاهي من الداخل، وعند انكسار حدة الحرارة يشد الحجاج الرحال[٢٨٣].

وفي الشتاء يلجأ الحجاج للمقاهي لحمايتهم من المطر، وطلبًا للتدفئة بإيقاد النيران في الأخشاب للتغلب على البرد الشديد[٢٨٤]، وكان ذلك يحدث عند صعود المرتفعات، وقد أكد العياشي أن شدة البرد دفعته للنزول في مقهًى حينما

(٢٧٨) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ٢٠٧/١.
(٢٧٩) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٣٦٥/١.
(٢٨٠) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٥٤/٢-١٥٥.
(٢٨١) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١-٣٥٢.
(٢٨٢) ديدييه، **رحلة إلى الحجاز**، ص٢٧١.
(٢٨٣) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٧٨/٢.
(٢٨٤) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٨٢.

كان ذاهبًا من مكة إلى الطائف بقوله: "ونزلنا بعد العشاء، وطلبنا خصًّا يكننا من شدة البرد، فأدخلونا محلّاً أوقدوا فيه نيرانًا عظيمة...، وقضينا عجبًا من شدة الحر والبرد معًا في المكانين المتقاربين"[٢٨٥]. وهكذا يتضح دور المقاهي في وقاية الحجاج من شدة الحر والبرد على الطرق الواصلة بين مدن بلاد الحجاز[٢٨٦].

هـ - الدور الثقافي للمقاهي:

كان للمقاهي ولا سيما في مكة للمترددين عليها مظاهر مختلفة من الثقافة والمعارف، وتفنن الأدباء في وصف القهوة، ومدحها شاربوها في مجالسهم[٢٨٧] التي ملأها أغلبية أصحاب المقاهي بالبخور والرياحين لتهيئة الأجواء للشعراء وغيرهم[٢٨٨].

وفي هذا السياق ذكر أوليا جلبي أن مقاهي مكة: "مجمع العرفان والأدب"[٢٨٩]، والإنشاد وتجمع الشعراء، وقد قدم أحد الشعراء نصيحة للمترددين على المقاهي قائلاً:

ولا تك غافلاً عن منشد طرب

فهذه ساعة الأشعار والشعرا[٢٩٠]

وكثير من مقاهي مكة كانت مراكز لتجمع "الرواة والقصاصين،

(٢٨٥) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٦٨/٢.
(٢٨٦) الورثيلاني، **نزهة الأنظار**، ٥١٣/٢.
(٢٨٧) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص١٢-١٥.
(٢٨٨) الحبازي، **شعر قهوة البن**، ص٢١٩.
(٢٨٩) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧٢.
(٢٩٠) الجزيري، **عمدة الصفوة**، ص١١.

وفي بعضها عدد من المداحين والشعراء والمطربين، وفي البعض الآخر بعض من المقرئين...، وفي البعض الآخر بعض من الغوازي السمر، البكر، المحففين، والبعض الآخر مكتظ بالجاريات الحبشيات"[٢٩١]. ومثل هذه المقاهي وجد فيها الحجاج ما يخفف عنهم مشاق الرحلة من شعراء ومغنين وما شابه ذلك من أوجه التثقيف والترويح عن النفس[٢٩٢].

وفي كثير من المقاهي انتشر السمار الذين يحكون القصص والحكايات، وأغلبية هؤلاء كانوا يمنيين، ويتغنون بأغانٍ جميلة تطرب النفوس، وأغلبها في مدح النبي ﷺ[٢٩٣]، وما شابه ذلك من أنواع القصص الديني والأخبار[٢٩٤]، وعمومًا فإن ذلك تماشى مع عادات العرب في الجلوس على المقاهي والإصغاء للحكواتي والمنشدين وغيرهم من الذين يقصدون هذه الأماكن نظير أجر زهيد[٢٩٥].

ومن ناحية أخرى كان الحجاج والمسافرون يتخذون من هذه المقاهي قاعدة لجمع المعلومات من أصحاب المقاهي وزوارها من المحيطين بالمقاهي وغيرهم عن كيفية التنقل من مكان إلى آخر، وعن المدن المختلفة، وما قد يقابلهم من صعوبات يمكن أن يتفادوها[٢٩٦]، وهكذا كان الدور

(٢٩١) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٧١-٢٧٢.
(٢٩٢) جلبي، **الرحلة الحجازية**، ص٢٨٨-٢٨٩.
(٢٩٣) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٥٧-٥٨.
(٢٩٤) الكردي، **التاريخ القويم**، ٢/١٧٦-١٧٧.
(٢٩٥) نيبور، **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٤٥.
(٢٩٦) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٤١.

الثقافي للمقاهي متعددًا، منه ما كان يختص بالأدب والشعر والقصص، والحكايات الدينية والشعبية، ومنها ما كان يتعلق بطبيعة أهالي الحجاز ومعرفة المدن والقرى والعادات والتقاليد، وما شابه ذلك.

و - التدخين في المقاهي:

انتشر التدخين في كثير من مقاهي بلاد الحجاز، وقدمت هذه المقاهي للحجاج المدخنين خدماتها المتنوعة[٢٩٧]، وقد صاحب ظهور التدخين جدل شبيه بما صاحب ظهور القهوة من تحريم وتحليل، وبين حينٍ وآخر كان يمنع شربه، كما كان في أيام الشريف مسعود بن سعيد (ت. ١١٦٥هـ/١٧٥٢م) الذي "منع الناس من التظاهر بشرب الدخان، فرُفع من القهاوي والأسواق وصار حاكمه يقبض على من يراه عنده من الأطواق[٢٩٨]، فقيل إنه كان يعتقد فيه التحريم، وقيل إن فعله هذا لا ينشأ عن تحريم ولا تحليل، وإنما لما تظاهر الناس بشربه في الشوارع وتعاطاه الأراذل والأسافل، ولا يرفعونه إذا مر عليهم شريف وعالم فاضل، فأمر بعدم التظاهر بشربه لذلك، وللعلماء في الدخان أقاويل بين تحريم وإباحة وتحليل، ويلزم القائلين بالتحريم تفسيق المسلمين بالتعميم"[٢٩٩].

وحينما بسطت الدولة السعودية الأولى (١١٥٧-١٢٣٣هـ/

---

(٢٩٧) بيرتون، **رحلة بيرتون**، ١٧٦/١.

(٢٩٨) الأطواق: كل شيء مستدير، ويقصد بها القدرة. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٦٦٦/٥.

(٢٩٩) دحلان، أحمد بن زيني، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص١٩٣.

١٧٤٤-١٨١٨م) سيطرتها على بلاد الحجاز حُرِّم التدخين، ولم يكن التبغ يباع علنًا، ولكن لأن كثيرًا من بدو الحجاز شغوفون به إلى حدٍّ بعيد فقد كان التجار يبيعونه في الخفاء بمتاجرهم ليس بوصفه تبغًا أو دخانًا، بل تحت اسم "متطلبات الرجل"[٣٠٠]. وقد كان بعض الحجاج يترددون على مقاهي مكة بهدف شرب الدخان[٣٠١]، وكثير منهم كانوا يذهبون إلى المقاهي على أطراف مكة لشرب "النرجيلة التي يجهزونها بالتنباك"[٣٠٢]، وربما سبب ذلك أن مقاهي أطراف مكة ألطف جوًّا من مقاهي قلب مكة، وخصوصًا أن هذا الأمر كان في الصيف، وربما أن لها سمعة جيدة في هذا المجال، أو اعتقادهم حرمة شرب الدخان في قلب مكة.

وكانت المقاهي المحيطة بالحرم المكي محطات لاستراحة الحجاج وتدخين بعضهم النرجيلة[٣٠٣]، وعلى جانب الطريق المؤدي إلى عرفات انتشرت صفوف من الأكشاك التي تشبه المقاهي وكانت تقدم التبغ[٣٠٤]، وتدخين النرجيلة أو الغليون الفارسي أمر شائع في المدينة المنورة كما في مكة، وتستعمل الغلايين العادية فيهما أكثر من أي أماكن أخرى من الحجاز[٣٠٥].

وقد وجدت بعض المقاهي التي تقدم المشروبات المحرمة

(٣٠٠) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٨.
(٣٠١) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٢١٧.
(٣٠٢) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٥٧-٥٨.
(٣٠٣) كين، **ستة أشهر في الحجاز**، ص١٥٤.
(٣٠٤) كين، **ستة أشهر في الحجاز**، ص١١٤.
(٣٠٥) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص٣٢١.

ولعب القمار، وما شابه ذلك[٣٠٦]، ولكن هذا ليس في إطار بحثنا، إذ لم نصادف أحدًا من الحجاج تناول ذلك، وما صادفناه من الحديث عن مثل هذه المقاهي والمترددين عليها يقتصر على السكان المحليين وليس الحجاج[٣٠٧]، وإن كنا لا نستبعد حدوث ذلك من بعض الحجاج.

ز - رعاية دواب الحجاج:

لم تكن خدمات المقاهي قاصرة فقط على الحجاج، بل برز لها دور حيوي في خدمة دواب الحجاج، فقد حرص كثير من أصحاب المقاهي على أن تلحق بمقاهيهم فضاءات واسعة محاطة بأسوار من جريد النخيل، فيها مرابط للجمال والخيول وغيرها من وسائل نقل الحجاج، ومجهزة لمبيت القوافل، وعلى حد وصف ذلك: "أفنية واسعة محاطة بأسوار من الجريد تربط فيها جمال الحجاج ودوابهم، وأغلب القوافل تبيت فيها". والجدير بالذكر أن مثل هذه الفضاءات كانت خاصة بالمقاهي على الطرق بين المدن لوجود المساحة الواسعة[٣٠٨].

أما المقاهي التي ليس في محيطها حيز كبير أو ساحات فقد كان بعضها يخصص حظائر لدواب الحجاج[٣٠٩]، إضافة إلى أن في محيط المقاهي كانت تباع أعلاف الدواب وسقايتها على طول الطرق بين المدن، وخصوصًا طريق جدة

(٣٠٦) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٠٨، ١٧٣.
(٣٠٧) بيركهارت، **رحلات إلى شبه الجزيرة العربية**، ص١٠٢.
(٣٠٨) البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٨-١٩.
(٣٠٩) رفعت، **مرآة الحرمين**، ٢٦/١.

مكة[٣١٠]، ويبدو أن كل مقهًى يستريح فيه الحجاج كان يوجد به أو على الأقل في محيطه أعلاف تباع للدواب على الطرق المختلفة[٣١١] التي يسلكها الحجاج الذين يعتنون بدوابهم كما يعتنون بأنفسهم، فهي تحملهم وتحمل أمتعتهم، وبدونها يلاقون مشاقَّ لا طاقة لهم بها[٣١٢].

ولذلك كثيرًا ما لجأ الحجاج للنزول والراحة في بعض المقاهي على الطرق بهدف إراحة الإبل من مشاق الطريق وشدة الحر الذي كان يتسبب في فناء مجموعات منها[٣١٣]، وقد حرص بعض أصحاب المقاهي على تخصيص أخصاص خاصة بإبل الحجاج مثلما خصصوا أخصاصًا لمبيت الحجاج وراحتهم، وأبرز المقاهي التي كان لها دور في ذلك مقهى شداد[٣١٤].

وهكذا قدمت مقاهي بلاد الحجاز خدمات للحجاج على جميع المستويات الغذائية والترفيهية والمبيت والوقاية من التقلبات الجوية، علاوة على الدور الثقافي وخدمات دواب الحجاج.

(٣١٠) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٥٤/٢.
(٣١١) الدرعي، **الرحلة الناصرية**، ص٤٤٣.
(٣١٢) العياشي، **الرحلة العياشية**، ١٣٩/٢.
(٣١٣) العياشي، **الرحلة العياشية**، ٣٦٥/١.
(٣١٤) صادق، **الرحلات الحجازية**، ص٣٥١-٣٥٢.

الخاتمة:

قدمت مقاهي بلاد الحجاز خدمات متنوعة للحجاج والمسافرين الذين تقطعت بهم السبل في كثير من الأحيان، فوفرت لهم سبل الراحة ووسائل التسلية، وقدمت لهم الطعام والشراب والمبيت ليلاً، بل والتثقيف من شعر وإنشاد وغيره، وقدمت المأوى والأعلاف والمياه لدواب الحجاج منذ أن تطأ أقدامهم بلاد الحجاز إلى حين مغادرتهم.

وفتحت المقاهي أبواب رزق لأصحابها والعاملين فيها، وما لفت الانتباه أنها حجمت من التعديات وقللت الجريمة على الطرق، لأن بعض من أداروها كانوا من قطاع الطرق أنفسهم، بمعنى أنها وطنت فريقًا منهم.

وهكذا قامت مقاهي بلاد الحجاز بأدوار متعددة، تقوم بها حاليًّا مجموعة من المنشآت المختلفة: مثل الفنادق والنوادي الاجتماعية والثقافية والمطاعم ومحلات بيع أعلاف الدواب والحظائر وغيرها.